الخطاب التوجيهي في حديث
"حصائد الألسنة"
دراسة تداولية حجاجية

إبراهيم عبد الفتاح رمضان
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب، جامعة المنوفية

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الأول)
(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

الخطاب التوجيهي في حديث "حصائد الألسنة" دراسة تداولية حجاجية.

إبراهيم عبد الفتاح رمضان

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة المنوفية، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: ebrahim.ramdan.98765@gmail.com

ملخص البحث: حاولت المناهج النقدية الحديثة استنطاق النص، وكشف أسراره، وبذلت في سبيل ذلك جهودًا كثيرة، واتخذ كل ناقد أو مجموعة من النقاد طريقًا يغاير الآخر، في محاولة للوصول إلى الطريقة المثلى في التعامل مع النص الأدبي، ولعل من أهم ما ظهر من تلك الاتجاهات المنهج التداولي الذي يَعني في أبسط مفاهيمه دراسة اللغة في الاستعمال، وقد نشأت لتغيير قناعات عاشت عند فلاسفة اللغة مئات السنين، وهي أن اللغة وظيفتها إخبارية، وتحمس أوستين وتلميذه سيرل لنقض تلك الفكرة، وإثبات أن الوظيفة الأساسية للغة هي الإنجاز والتأثير، وإذا كانت هذه الفكرة مقنعة وحقيقية، فهل نجد على ذلك دليلا في التراث؟ وهل هذا الدليل له علاقة بالنصوص الدينية أم أنه متعلق بالنصوص الأدبية؟ وهل حقق الرسول -ﷺ- صاحب الرسالة شيئًا من تلك الأغراض الإنجازية من خلال أحاديثه الشريفة؟ وما مدى استجابة المدونة النبوية لتطبيق التقنيات التداولية عليها؟ وهل كان استعمال تلك التقنيات من لدن الرسول الكريم محققًا للتأثير في أصحابه، وفيمن جاء بعدهم وآمنوا به نبيًّا ورسولًا؟ وهل هناك خصائص تميز بها الخطاب النبوي عن الخطابات الأخرى؟ والدراسة الماثلة اختارت حديثًا من الأحاديث النبوية لتطبق عليه ما اتفق عليه النقاد من مبادئ النظرية التداولية الحجاجية، لتثبت في نهاية الدراسة أن الخطاب النبوي التربوي كان خطابًا حجاجيًّا بامتياز، وأن النبي الكريم قد طبق في حديثه أحدث ما وصلت إليه العقلية العربية والغربية بعد زمان طويل يفصل بين زمانها وزمانه، على الرغم من تطور العقل في هذه الفترة تطورًا هائلًا، ولكن يظل النبي الكريم متفوقًا في استعمال أحدث ما وصل إليه العلماء.

الكلمات المفتاحية: الحديث النبوي، النص، الخطاب، التداولية، أفعال الكلام، الحجاج.

The guiding discourse in the hadith of "harvest of tongues" is an argumentative pragmatic study.

Ibrahim Ramadan
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Menoufia University, Arab Republic of Egypt.
Email: ebrahim.ramdan.98765@gmail.com

Abstract: The modern critical curricula tried to interrogate the text and reveal its secrets, and made many efforts for that. Directions The deliberative approach, which in its simplest concepts means the study of language in use, and it arose to change convictions that lived among philosophers of language for hundreds of years, which is that language has an informative function. The idea is convincing and real, so do we find evidence for that in the heritage? Is this evidence related to religious texts or is it related to literary texts? Did the Messenger - may God bless him and grant him peace - achieve any of these accomplishment goals through his honorable hadiths? What is the extent of the response of the prophetic code to the application of deliberative techniques to it? Was the use of these technologies from the hands of the Noble Messenger effective in influencing his companions, and on those who came after them and believed in him as a prophet and messenger? Are there characteristics that distinguish the prophetic discourse from other discourses? The present study chose a hadith from the Prophet in order to apply to it what the critics agreed upon from the principles of the argumentative theory, to prove at the end of the study that the prophetic educational discourse was an argumentative discourse par excellence, and that the Holy Prophet applied in his speech the most recent developments reached by the Arab and Western mentality after a long time separating Between her time and his time, despite the development of the mind in this period a tremendous development, but the Holy Prophet remains superior in the use of the latest findings of scientists.

Keywords: Prophetic hadith, Text, discourse, Deliberation, Speech acts, Pilgrims.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد...

فقد حاولت المناهج النقدية الحديثة استنطاق النص، وكشف أسراره، وبذلت في سبيل ذلك جهودًا كثيرة، واتخذ كل ناقد أو مجموعة من النقاد طريقًا يغاير الآخر، في محاولة للوصول إلى الطريقة المثلى في التعامل مع النص الأدبي، ولعل من أهم ما ظهر من تلك الاتجاهات المنهج التداولي الذي يَعني في أبسط مفاهيمه دراسة اللغة في الاستعمال، وقد نشأت لتغيير قناعات عاشت عند فلاسفة اللغة مئات السنين، وهي أن اللغة وظيفتها إخبارية، وتحمس أوستين وتلميذه سيرل لنقض تلك الفكرة، وإثبات أن الوظيفة الأساسية للغة هي الإنجاز والتأثير.

وإذا كانت هذه الفكرة مقنعة وحقيقية، فهل نجد على ذلك دليلا في التراث؟ وهل هذا الدليل له علاقة بالنصوص الدينية أم أنه متعلق بالنصوص الأدبية؟ وهل حقق الرسول -ﷺ- صاحب الرسالة شيئًا من تلك الأغراض الإنجازية من خلال أحاديثه الشريفة؟ وما مدى استجابة المدونة النبوية لتطبيق التقنيات التداولية عليها؟ وهل كان استعمال تلك التقنيات من لدن الرسول الكريم محققًا للتأثير في أصحابه، وفيمن جاء بعدهم وآمنوا به نبيًّا ورسولًا؟ وهل هناك خصائص تميز بها الخطاب النبوي عن الخطابات الأخرى؟

إن النظريات التي يتوصل إليها النقاد تبقى حبيسة في حيز الكتب ما لم تجد نصًّا حيًّا تطبق عليه، ويكون في هذا النص من المرونة ما يحقق العناصر التي تنادي بها هذه النظرية. والخطاب النبوي خطاب ثري قيل من نبي مرسل حريص على أمته وبالتالي انطبق على قوله الصدق، وتوجه به نحو مخاطبين معينين، بقصد إيصال مضامين معينة، تحول كلامه الكريم إلى سلوك عملي، فتعلي من قيمة الفضائل والأخلاق، وتنفر من الرذائل والشرور، وما كان هذا ليحدث لولا أن قائل الكلام كان صادقًا يطبق ما يقوله على نفسه قبل الآخرين، لقد تحققت مدينة أفلاطون على وجه الأرض في الوقت الذي لم

يستطع مخترعها أن يحققها لأنه كان ينادي بالنظرية كلامًا فحسب، ولا يحولها لسلوك عملي.

والدراسة الماثلة اختارت حديثًا من الأحاديث النبوية لتطبق عليه ما اتفق عليه النقاد من مبادئ النظرية التداولية الحجاجية، لتثبت في نهاية الدراسة أن الخطاب النبوي التربوي كان خطابًا حجاجيًّا بامتياز، وأن النبي الكريم قد طبق في حديثه أحدث ما وصلت إليه العقلية العربية والغربية بعد زمان طويل يفصل بين زمانها وزمانه، على الرغم من تطور العقل في هذه الفترة تطورًا هائلًا، ولكن يظل النبي الكريم متفوقًا في استعمال أحدث ما وصل إليه العلماء، لنؤمن جميعا بأنه كان مؤيدًا من ربه في الوقت الذي كان يتمتع فيه بأرقى درجات البيان والبلاغة والفصاحة.

التمهيد

يشمل التمهيد ثلاثة مداخل مهمة، أولها:

(٠ / ١) **مفهوم الخطاب:**

ورد الجذر اللغوي (خطب) في المعاجم العربية بمعنى: مراجعة الكلام، والمواجهة به. والمخاطبة مفاعلة تفيد الاشتراك في الفعل، والخطاب عند ابن منظور مرادف للكلام (١). وقد ذُكِرتْ لفظة الخطاب في القرآن في ثلاثة مواضع (٢).

ويضح من المعنى اللغوي للخطاب أنه مراجعة للكلام، وأنه كلام موجه لمتلقٍّ، يحمل رسالة، من خلال التواصل بين المرسِل والمتلقي.

وأما الخطاب في الاصطلاح: فقد كثرت تعريفاته لاختلاف المدارس التي ينطلق منها الدارس، والمجالات المختلفة التي تقوم بدراسته. ومن أجمع التعريفات في التراث ما ذكره الكفوي في قوله: (اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه) (٣). وهو تعريف يركز على القصدية ونية المتكلم؛ فالمتكلم إذا لم يكن همه الأول إفهام المتلقي فلا يكون قادرا على التواصل. وهناك تعريفات أخرى كثيرة منها ما ذكره أحمد المتوكل: (يعد خطابا كل ملفوظ مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات) (٤). ومن تعريفات الخطاب في التراث نستشف ما يأتي: ١- أن الخطاب شامل للجملة، وليس ضدًّا لها. ٢- التركيز على فكرة التواصل بين أطراف العملية الخطابية. ٣- أن الخطاب لا يمكن ضبط حجمه فقد يكون نصًّا كبيرا أو جملة أو شبه جملة أحيانا. ٤- أن الخطاب شامل لكل موقف اتصالي سواء أكان مكتوبا أو شفهيا. ٥- الخطاب مساوٍ للكلام في مفهوم دي سوسير بمعنى أن الخطاب سلسلة متتابعة من الجمل، أو لنقل سلسلة من العناصر موجهة من المتكلم إلى المتلقي، يتم فهمها حين يتفق الطرفان في الشفرة اللغوية.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب.

(٢) النبأ ٣٧ (لا يملكون منه خطابا)، ص ٢٠ (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)، ص ٢٣ (وعزني في الخطاب).

(٣) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ٤١٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م

(٤) أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية: دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ٢٤، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م.

وفي الفكر الغربي نجد مصطلح الخطاب (Discourse) تعني الجري ذهابا وإيابا، وتدل على الجدل (Dialectic)، كما تدل على العقل أو النظام المسمى (Logos) عند أرسطو (١). وقد عرفه بنفنست (Benvensit) بأنه: (كل تلفظ يفترض متكلما أو مستمعا، بحيث يحاول المتكلم التأثير على المستمع؛ بطريقة ما)، ويعرفه تودوروف (Todrouf) بأنه: (منطوق أو فعل كلامي، يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية هذا الراوي التأثير على المستمع) (٢). ومن خلال تعريفات كثيرة للخطاب في الفكر الغربي نشير إلى: ١- الخطاب بين الطرفين لابد أن يكون موضوعه مفهوما. ٢- لابد من أن تكون الأفكار والمنطوقات مرتبة. ٣- لابد فيه من التواصل بين الطرفين؛ لأنه نشاط تواصلي قائم على اللغة المنطوقة. ٤- المتكلم له غرض مهم في خطابه هو التأثير على السامع واستمالته. ٥- مصطلح الخطاب مراوغ متعدد الدلالات وفق الجهة التي يدرس منها، أو المجال المعرفي الذي يقوم على دراسته. ٦- الخطاب عند الغربيين نتاج تلاقح علوم مختلفة، وتيارات متعددة، شأنه شأن التداولية.

فالخطاب له استعمالان ظاهران: الأول: أنه نظام مكون من علامات ورموز أي: أنه يستعمل بمعنى اللغة، والثاني: أنه يتضمن محتوى من المضامين والأفكار والأحاسيس، فيعدُّ رسالة يلقيها المتكلم إلى المتلقي، ويهدف من ورائها إلى تحقيق التواصل والتأثير.

وهل هناك فارق بين النص والخطاب؟ قضية خلافية اعتمد فيها الذين فرقوا بينهما على الجانب الكمي؛ بمعنى الطول والقصر؛ فالخطاب يتسم بالطول؛ حيث إن جوهره تبادل حواري بين طرفين. أما النص فيكون قصيرًا حتى أنه قد يكون كلمة واحدة، كما في قول القائد العسكري مثلا: (هجوم)، وقد يطول حتى يكون مدونة كاملة مثل: رسالة الغفران لأبي العلاء. ولكن اعتماد الجانب الكمي ليس فرقا دقيقا يمكن الاعتماد عليه في التمييز بين النص والخطاب. والذي يؤيد ذلك أن من

---

(١) الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، ٩٠، المجلس الأعلى للثقافة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠م.

(٢) تزفتان تودروف، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ص٤٨، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المركز الثقافي، ١٩٩٣م.

العلماء من يجعل النص أوسع من الخطاب. حتى أن الدكتور أحمد المتوكل يتردد في الأمر فيجعل الخطاب أعم من النص مرة، والنص أعم من الخطاب مرة ثانية(١). ويفرق البعض بين النص والخطاب بأن النص مكتوب والخطاب ملفوظ. وهذا الفرق -أيضا- لا يتماسك أمام التحقيق، وقد عرَّف هاليداي ورقية حسن النص بأنه: (أية فقرة منطوقة أو مكتوبة مهما كان طولها شريطة أن تكون وحدة متكاملة (٢). ويبدو أن محاولات التفريق بينهما لا ترتقي إلى درجة الإقناع بطبيعة الفرق بين المصطلحين. إلا أننا نستطيع التفريق بينهما من خلال الميل إلى أن النص هو جملة أو متوالية من الجمل تلقى إلى السامع بقطع النظر عن ظروف إلقائه، أو قصديته أو مقام بثه. بينما يكون الخطاب نصًّا مراعًى فيه الأمور السابقة. وقد فضَّلتْ الدراسة مصطلح الخطاب لما يتسم به من أنه إنتاج لغوي مرتبط بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية.

وإذا كانت حدود الخطاب قد تحددت من خلال ما تقدم، فإن الخطاب التوجيهي يعني في اصطلاح التربويين: الإرشادات والمعارف التي تصدر من المرسل بقصد التبليغ للمتلقي، والهدف من ورائها تشكيل السلوك بطريقة تتفق مع فلسفة مرسل الرسالة (٣). ومما يلاحظ أن الخطاب التربوي يتضمن رسالة مرسلة من مرسل معين، له قصدية معينة، إلى متلق معين، ولها غاية وهدف، تسعى إلى تحقيق هذه الغاية وذلك الهدف. ومن خلال عقد صلة بين هذا الخطاب التربوي والحديث النبوي تتمثل الغاية التي تتضح من الحديث الشريف في أنها: جملة توجيهات تهم المسلم المؤمن بالرسول الكريم في أمر دينه ودنياه مضمنة في أقواله

---

(١) أحمد المتوكل، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ٨١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ٢٠٠١م.

(٢) شريفة بلحوت، طبيعة النص وعلاقته بسياق المقام من منظور مايكل هاليداي ورقية حسن، مجلة الأثر، عدد خاص أشغال الملتقى الوطني الأول حول: اللسانيات والرواية، فبراير ٢٠١٢، نقلا عن: M. Halliday & R. Hassan, Cohesion in English, p1

(٣) محمود خليل أبو دف، دراسات في الفكر التربوي، ص٥، أطروحة دكتوراه بالجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م.

– صلى الله عليه وسلم– وموجهة إلى المسلمين – الحاضرين والضمنيين– بغرض بناء شخصية تبتغي الدار الآخرة، ولا تنسى نصيبها من الدنيا.

(٠ / ٢) مقصدية الحديث النبوي:

مبحث المقصدية تشترك في دراسته علوم كثيرة منها: علم النفس، وفلسفة اللغة، وأصول الفقه، وعلم الدلالة، والتداولية، ولأهمية هذا المبحث في الدراسة التداولية فإنه لا وجود لأي تواصل بين طرفين متحدثين باللغة دون وجود قصد يكمن وراء هذا التواصل. ويرى ابن جنّي أن الأصل في الفعل (قصد) الاعتزام، والتوجه، والنهود، والنهوض نحو الشيء، سواء أكان ذلك على اعتدال أو على جوْر [١]. والمقصد مكانُ القصد، ويعرف القصد حديثا بأنه: (توجه النفس إلى الشيء، أو انبعاثها نحو ما تراه موافقا، وهو مرادف النية) [٢].

ومن خلال هذا المعنى للكلمة نستشف أن هناك فرقًا بين القصدية والمقصدية؛ فالقصدية مأخوذة من القصد، والمقصدية مأخوذة من مكان القصد أي: المقْصِد [٣]. ويسميها سيرل القصدية، ويعرفها بقوله: هي سمة العقل التي توجَّه بها الحالات العقلية، أو تتعلق بها حالات عقلية، أو تشير إليها، أو تهدف نحوها في العالم) [٤]. والمقصد نية المتكلم، ولا يكون هذا المقصد واضحا إلا في سياق تفاعلي بين المتكلم والسامع، ولا نستطيع الحكم على الفعل الكلامي بأنه فعل مقصود حتى يكون قصد المتكلم منصرفا إلى إفهام المخاطب أمرين: أولهما قصده التواصلي. والثاني قصده التكلمي؛ فيجب أن يعرف المخاطب أن المتكلم يريد فعلا تواصليا معه، وأن يعرف المخاطب الهدف من هذا الفعل التكلمي، وفي الحالتين لا يتم تعرف المخاطب على ذلك إلا بصدور هذا الفعل بالتلفظ. (والمقاصد هي الأرضية

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب، دار المعارف.

(٢) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢/ ١٩٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

(٣) ينظر: عادل محمد الناجم، المقصدية في النص الروائي للكوني: دراسة تداولية، ١٧٧، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية، مجلد ١٥، العدد الثاني، ٢٠١٦م. (ويبدو أن مصطلح المقصدية أكثر استيعابا للمراد لكونه يروم نهاية الشيء وغايته).

(٤) جول سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، ١٠٢، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون والمركز الثقافي المغربي، ط١، ٢٠٠٦م.

التي تُبنى عليها الخطابات العادية منها والفنية) [١]. وفهم الخطاب الصادر من المتكلم متوقف على عدة عوامل: منها: أن يفهم المتلقي قصد المتكلم، فيتوقف ذلك على كفايته التحصيلية، وأيضا على كفاية المتكلم من الوجهة التدليلية والتبليغية ... فالمعنى لا يتوقف على الملفوظ وحده، بل على قدرة المخاطب على استخراجه مما قيل، عبر عملية إعادة بناء تقوم على التفسير والفهم والتأويل [٢].

إن مبدأ التعاون الذي اقترحه جرايس هو محاولة لتنظيم قضية التواصل بين المرسل والمستقبل، وفي الوقت نفسه يعد مساعدة للمتلقي حتى يقف على قصد المتكلم؛ حيث إن مراعاة هذا المبدأ بشُعَبِه الأربعة: الكم والكيف والطريقة والمناسبة يجعل المخاطب يفهم مقصدية المتكلم، بيد أن هذه المبادئ كثيرا ما يتم خرقها، وهنا لابد من أمور أخرى تعين المتلقي على فهم المقصد الجديد للمتكلم، أو معنى المعنى –على حد تعبير عبد القاهر[٣]– أو معنى الجملة ومعنى المتكلم –عند جون سيرل[٤]– أو المعنى الصريح والمعنى المتضمن –على حد قول جرايس[٥].

لقد جاء اهتمام جرايس بفكرة المقاصد حين كان يدرس الدلالات الطبيعية وغير الطبيعية؛ ذلك أن كل حدث –لغوي أو غير لغوي– له إحدى دلالتين: إما أن يكون له نية الدلالة أو ليس له نية الدلالة. فكون الدخان يتصاعد من بيت الجار معناه: أن هناك نارا موقدة، ولكن هل قصد موقد النار أن يدلنا بهذا الدخان على شيء؟ والحقيقة أن الدلالة هنا طبيعية غير مقصودة. لكن حينما تطلب من ولدك الصغير أن يذاكر دروسه فهذه الكلمات التي نطقت بها علامات، لها دلالة غير طبيعية وهي مقصودة؛ لأنك تقصد ما تقول، وهو أن يذاكر الابن دروسه.

---

(١) محمد بكاي، التصورات التداولية لمبحث القصدية، ١٩٦، مجلة العربية والترجمة، تصدرها المنظمة العربية للترجمة، مجلد ٦/ العدد ٢١، ٢٠١٥م.

(٢) السابق، ١٩٧.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٢٦٢، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٢م.

(٤) جول سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ٢٠٦، مرجع سابق.

(٥) محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ٣٣، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٢م.

ولأن القصد شيء مستور، لا يمكن للمخاطب الاطلاع عليه إلا حين ينطق المتكلم فقد كان من اهتمام التداولية أن تجيب عن السؤال الذي يتلخص في: كيف يفهم المتلقي قصد السامع؟ وقد كان ذلك بالرجوع إلى المسرح الكلامي التي تستعمل فيه اللغة، أو بدراسة اللغة في الاستعمال، ويستعان بمجموعة من المحددات تسعى إلى كشف مراد المتكلم وقصده، ومنها: العرف اللغوي الذي يشترك فيه المتكلم والسامع، والمثال الذي ذكره الفقهاء أن من حلف ألا يأكل لحمًا فأكل سمكًا لا يقع يمينه، على الرغم من أن السمك لحم، وفي القرآن: (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) [فاطر ١٢] إلا أن العرف خصص هذه الدلالة، فصار اللحم يطلق على كل ما عدا السمك. كذلك من محددات فهم المقاصد السياق؛ ذلك أن السياق حاكم، ومزيل للبس الذي قد يقع فيه مؤول الكلام، ففي قول المتنبي:

ولم أر قبلي من مشى البحر نحوه ... ولا رجلا قامت تعانقه الأُسْدُ

نجد للبيت معنيين: معنى لغويا، وهو ما يفهم من ظاهر الألفاظ، ومعنى تداوليا، وهو ما يفهم من تأويل السامع لمعنى تشبيه سيف الدولة بالبحر، وندمائه بالأسود. ومن مزايا السياق أنه يمنع تعدد المعنى في المشترك اللفظي، فحين نقول: شربت من عين عذبة يتعين هنا أن يكون المراد عين الماء، وليست الجارحة أو الجاسوس أو غير ذلك من المعاني؛ لأن سياق الجملة هو الذي أوجب هذا المعنى، ومنع بقية المعاني. وكذلك من المحددات الزمان والمكان؛ إذ يسهم الزمان والمكان في فهم قصد المتكلم؛ فحين يقول القائل: لن أرمي حتى تزول الشمس فإن وجوده في مكة، وفي أيام التشريق يوجب أن يكون المقصود رمي الجمرات، وليس رمي السهام. ويقاس على ذلك أمثلة كثيرة.

كان هذا حديثا عن المقصدية بصفة عامة، فأما مقصدية الحديث النبوي فإن الحديث نص مقدس –شأنه شأن القرآن الكريم– وله خصائص تميزه عن بقية النصوص البشرية، وصاحب هذا النص الكريم له وظيفة تبليغية وتشريعية؛ فهو رسول الله أي المبلغ عن الله، وقد بعث مُعَلِّمًا، مهمته تمكين الأقوال التي يدعو إليها في نفوس المؤمنين به –شاهدين وغائبين– كتمكن هذه المعاني من نفسه –ﷺ– فهو صاحب رسالة جاء بها من عند ربه، قد وُضعت أصولها في القرآن، ويقوم بترسيخها

ليؤسس مجتمعا مثاليا، له قيم حضارية في الفكر والسلوك كليهما، ليتحقق المجتمع الذي نادت به الفلاسفة؛ وهو مجتمع يطبق مكارم الأخلاق في أرقى صورة لها.

يعرف العلماء الحديث الشريف بأنه: كل ما ورد عن النبي -ﷺ- من قول أو فعل أو تقرير أو صفة [١]. والسنة شارحة للقرآن، والرسول الكريم معلم للأمة، وموجه لها، ومبلغ عن ربه سبحانه.

ومن الدارسين المحدثين من يطلق على الحديث الشريف مصطلح الخطاب النبوي، بناء على أن الخطاب عبارة عن رسالة ذات هدف ودلالة، ويقصد بها التأثير والإقناع في ظل سياق معين قيل فيه هذا الخطاب، ويعرِّف طه عبد الرحمن الخطاب بأنه: "كل منطوق به موجه إلى الغير، بغرض إفهامه مقصودًا مخصوصًا"[٢]. لكن لابد من ملاحظة أن هذا الإطلاق جزء من السنة، وليس هو كل السنة؛ إذ السنة تشمل القول والفعل والتقرير، وإطلاق لفظ الخطاب عليها يشمل القول وحده، وهو الجانب الأكبر في السنة المطهرة. وقد نصَّتْ الدراسة في العنوان على لفظة الحديث بدلا من الخطاب؛ لأن لفظة "الحديث" في مضمونها اللغوي تطلق على ضد القديم، فهو حديث متجدد بالاستعمال، ولا حاجة للوقوف عند تاريخانية إنتاج الحديث؛ لأنه متجدد متداول صالح لكل زمان ومكان. على أننا قد نستخدم لفظ الخطاب أحيانا عند التكلم عن الوظيفة التي تؤديها الكلمات التي تشكل نصًّا في سياق معين، ولا يكون ذلك تناقضًا لأننا نقصد عندئذ أن الحديث الشريف فعل كلامي، أو ملفوظ له غرض إنجازي.

وتهدف البلاغة النبوية إلى تمكين المعنى وتوكيد الحقائق، ومن ثَمَّ "كان الإيضاح والبيان منهجًا ملازمًا لهذه البلاغة، تحقيقًا للغاية الإبلاغية، التعليمية،

---

(١) ينظر: عبد الفتاح أبو غدة، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، ١٤، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ومكتبة النهضة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢١٥، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨م.

التربوية التي كُلِّف بها صاحب هذه البلاغة -ﷺ- في أنماط أسلوبية لها خصوصيتها المتوائمة مع غايتها) (١).

وللحديث النبوي خصائص لابد من الإشارة إليها قبل الشروع في دراسة الحديث، منها: أن الحديث النبوي نص مقدس له وظيفة تشريعية (إبلاغية)، هدفها الأساس هو (تمكين مقتضى القول في نفس المتلقي الشاهد والغائب كتمثلها في نفس المتكلم -ﷺ-) (٢). ومنها أن الأساليب الحجاجية التي يسوقها الرسول الكريم ليست غاية، ولكنها وسيلة، يقصد منها تحويل المضامين التربوية والتشريعية إلى منجز فعلي، وسلوك حضاري، ووسيلة هذا التحويل هي الإقناع وتمكين الفكرة في نفس المتلقي؛ لتتحول إلى يقين، ثم بعد الإيمان بها يكون السلوك الفعلي المبني على التصديق بأن ما جاء به رسول الله حق وصدق. ومن الخصائص -أيضا- أن طرفي الخطاب في الحديث النبوي ليس بينهما صراع ولا اختلاف في الآراء، وليس كل واحد منهما يسعى إلى الغلبة على الآخر، والانتصار لرأيه -كما هو الحال في الحجاج الأرسطي- ولكنه حجاج بريء (غاية في الشفافية والصدق، حيث إن المخاطِب [وهو الرسول الكريم] يستهدف بالإقناع من يؤمنون به نبيًّا ورسولًا سواء أكانوا شاهدين أو غائبين) (٣). ومن خصائص البيان النبوي أنه بيان غير محدود بزمان التكلم فهو خطاب موجه إلى الحاضرين -في الأصل- وإلى الغائبين بالتبعية؛ فهو خطاب عام يشمل الزمان والمكان إلى قيام الساعة، فلا نبي بعد رسول الله -ﷺ- فالخطاب النبوي، والبيان الكريم يشبه الخطاب الكتابي -مع كونه شفاهيًّا لمن ألقي إليهم- من حيث انتقاله إلى العصور التالية، والأماكن المتعددة، وذلك من خلال سلسلة الرواية التي يتم

(١) عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة توجيه النص، ٣٤، بلنسية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

(٢) السابق، ٢١٥.

(٣) السابق، ٢٢٠.

فيها نقل الحديث بواسطة راوٍ عدل تام الضبط عن مثله من أول السند إلى منتهاه من غير شذوذ أو علة في النص الشريف. ومن الخصائص -كذلك- أن الخطاب الحجاجي للرسول الكريم موجه إلى مجتمع مسلم لكن يوجد وراء هذا المجتمع جمهور آخر غير مسلم، وهذا يجعل الخطاب له خصائص تجعله موجهًا إلى كِلا المجتمعين: المسلم وغير المسلم؛ فيكون الغرض محقِّقًا لدى المسلم الاقتناع واليقين في رسالة الرسول، والانضباط بضوابط دينه. ولدى غير المسلم الإقناع من خلال الخطاب الذي يخاطب فطرة البشر، ولا يلحق به خطاب آخر من الخطابات الوضعية. ومن الخصائص -أيضا- أن الخطابات البشرية غايتها تحقيق المنفعة، وتحصيل الفائدة. لكن الخطاب النبوي غايته تعليمية غرضها بيان الحقيقة، وتعديل السلوك، ونشر القيم، وترسيخ العقيدة، وتنحية الأفكار السيئة واستبدالها بأخرى حسنة (١). يقول علي الشبعان: (يعدُّ مبدأ استبدال الأفكار وتعديلها من الأصول البانية لكل خطاب حجاجي يروم النجاعة، ويهدف إلى التحويل) (٢). ويمكن تلخيص الخصائص التي يخالف بها الحديث النبوي بقية الخطابات في الجدول التالي:

م	الخطاب النبوي	الخطاب البشري
١	نص مقدس له وظيفة تشريعية هدفها الأساس هو تمكين مقتضى القول في نفس المتلقي الشاهد	ليس مقدسا ووظيفته ليست تشريعية.
٢	الأساليب الحجاجية التي يسوقها الرسول الكريم ليست غاية ولكنها وسيلة لتحويل المضامين التربوية والتشريعية إلى منجز فعلي، وسلوك حضاري.	الأساليب الحجاجية ليست غاية ولكنها وسيلة لتحقيق منفعة، أو انتصار على خصم، أو إفحام معاند

(١) آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، ٣٣، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

(٢) علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ١١٣ (بالهامش)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٣	أن طرفي الخطاب في الحديث النبوي ليس بينهما صراع ولا اختلاف في الآراء	بين الطرفين صراع واختلاف في الآراء وكلاهما يريد الانتصار على الآخر في الغالب الأعم
٤	بيان غير محدود بزمان التكلم فهو خطاب عام يشمل الزمان والمكان إلى قيام الساعة، ووسيلته النقل الشفوي بشرط الضبط والعدالة، والكتابة فيما بعد.	قد يكون مقصودا منه العموم، ولكن وسيلة هذا العموم تتمثل في كونه نصا مكتوبا.
٥	موجه للمسلم والكافر أو الشاك فيحقق الاقتناع للمسلم، والإقناع لغير المسلم من خلال خطاب الفطرة.	موجه لأحد الطرفين: المسلم أو غير المسلم في الغالب.
٦	غايته تعليمية غرضها بيان الحقيقة وتعديل السلوك ونشر القيم، وترسيخ العقيدة، وتنحية الأفكار السيئة واستبدالها بأخرى حسنة	غايته تحقيق المنفعة، وتحصيل الفائدة

(٠ / ٣) مصطلحات الدراسة:

تحدثتْ الدراسة عن تعريفات الخطاب في تراثنا العربي، وعند الغربيين، وقد اختارت الدراسة تعريفًا إجرائيًّا تسير عليه كلما ذُكِر الخطاب، وهو منطوق أو فعل كلامي، يخرج من متكلم ويلقى إلى مستمع، يحمل رسالة مقصودة إلى ذلك المستمع هدفها التأثير فيه بالاستجابة لها، أمرًا كانت أو نهيًا من خلال إيمان المتلقي بأن المتكلم ثقة لا يخدع، ثقة لا يكذب.

والخطاب التوجيهي هو الخطاب التربوي الذي يتضمن رسالة مرسلة من مرسل معين، له قصدية معينة، إلى متلق معين، ولها غاية وهدف تسعى إلى تحقيق هذه الغاية وذلك الهدف.

وأما الحديث الذي اختارت الدراسة أن تتناوله، فهي التي اختارت له هذا العنوان، وهو: "حصائد الألسنة"، ولعل ذلك له صلة بموضوع التداولية؛ لأن اللسان أداة البيان، وترجمان القلب، وقد طلب صاحب الرسالة -ﷺ- أن نتحفظ من خطر هذا العضو الصغير الذي يرتبط به مصير العبد يوم القيامة،

فيكون مصيره جنة أو نارًا، ولما للسان من منزلة كبيرة في الحكم على صاحبه، من كونه فصيحا أو مفحما عييًّا. وقد ورد المركب الإضافي "حصائد ألسنتهم" في نهاية الحديث فاخترته عنوانا.

والتداولية أحد الأفرع الثلاثة التي شملها علم السيمياء عند تشارلز موريس، وهي: علم التراكيب الذي يعنى بدراسة العلامات من حيث العلاقات الشكلية بين بعضها البعض. وعلم الدلالة الذي يدرس العلامات من حيث علاقتها بما تدل عليه. والتداولية التي تدرس علاقة العلامات بمفسريها. وعلى الرغم من هذا التقسيم المبكر من لدن موريس في ثلاثينيات القرن العشرين إلا أن التداولية لم تدخل مجال الدرس اللساني إلا في سبعينيات القرن نفسه. ولعل السبب في دخولها حقل اللسان ما قام به ثلاثة من فلاسفة اللغة العادية هم أوستين (J.L.Austin) وسيرل (J.R.Searle) وجرايس (H.P.Grice) الذين ركزوا اهتمامهم على توصيل اللغة الإنسانية بواسطة رسالة من مرسل إلى متلق يفسرها، غير أنهم لم يستعملوا مصطلح التداولية [١].

وقد عرِّفت التداولية تعريفات كثيرة لعل أهمها: أنها دراسة اللغة في الاستعمال. وللتداولية علاقة بعلوم كثيرة، وهي ليست مستوى من المستويات المعلومة للدرس اللغوي من أصوات وصرف ونحو ودلالة، ولكنَّ كل المستويات تدخل في نطاقها، وبذلك نجد اتساعًا كبيرًا لمفهومها ومجال عملها؛ فهي تُعنَى بالخطابات المتنوعة مكتوبة أو شفهية، وتدرس -أيضًا- العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وتدرس -كذلك- المعنى في سياق استعماله، وتدرس مقصدية المرسِل، ومثالية المتلقي؛ لفك شفرات الرسالة الملقاة إليه. وغير ذلك من الأمور المتعلقة بميدان التواصل والظروف المحيطة به.

---

(١) ينظر: محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي،٩، مرجع سابق.

(٠ / ٤) نص الحديث:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ –رضي الله عنه– قَالَ: قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدْنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: –"لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ–: (تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ (١)، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُك بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟) قُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) فقُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: (كُفَّ عَلَيْك هَذَا). قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: (ثَكِلَتْك أُمُّك. وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ – أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ – إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟) (٢).

---

(١) سورة السجدة، ١٦– ١٧.

(٢) الحديث رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة رقم (٢٦١٦). ورواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان رقم (٣٩٧٣). ورواه الإمام أحمد في مسنده، (ج٥/ ص٢٣١).

المبحث الأول: السياق التوجيهي في حديث حصائد الألسنة

تدور معاني السياق في اللغة حول التتابع سواء أكان ذلك في الدلالة المحسوسة أو العقلية [١]. ففي المدلول المحسوس/ المادي أُخذَت اللفظة من سوق الإبل، وفي المدلول المعنوي أُخذَت من سوق الكلام بعضه وراء بعض. وفي الدلالة الاصطلاحية وردت تعريفات كثيرة للسياق نكتفي منها بثلاثة تعريفات: (كل سياق عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث، وقد يكون اتجاه مجرى الأحداث هذا دالا على حالة ابتدائية، وحالة وسطى، وحالة نهائية)[٢]. وعند عبد الهادي الشهري: (عبارة عن التتابعات اللغوية التي تتشكل في الخطاب من وحدات صوتية وصرفية ومعجمية، وما يدور بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية)[٣]. وفي معجم المصطلحات الأدبية: (بناء نصي يتألف من فقرات متماسكة، في علاقة النص بجزء من أجزائه، أو الأجزاء التي تسبق، أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة .. مما يلقي ضوءًا على معنى الفقرة وغاياتها بأكملها)[٤].

ونعني بالسياق –في دراستنا الماثلة: مجموعة من العوامل التي تحيط بالعملية التلفظية، وتسهم في إيضاحها، وفهمها وتفسيرها على الوجه الأمثل، حيث إن كل كلام يكون وراءه قصد من الإفادة بين المتكلم والمخاطب، وتقوم القرائن المحيطة بعملية الكلام بدور مهم في تفسير هذا الكلام وتوضيحه؛ ليتحقق الغرض من علمية التواصل.

ولم يعد السياق مقتصرًا على ما يسبق الكلمة أو الجملة أو ما يلحقها في بيان معناها والمقصود بها، ولكن أصبح يشمل (الظروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العلاقات التي بين الموقف الاجتماعي والموقف اللساني)

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة سوق. وكذلك: المعجم الوسيط.

(٢) فان ديك، النص والسياق، ٢٥٨، ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

(٣) عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة تداولية، ٤٠، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

(٤) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، ٢٠١، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، ط١، ١٩٨٦م.

[1]. ويرى فيرث أن المعنى لا يتم إلا بتسييق الوحدة اللغوية، أي: أن توضع في سياقات مختلفة [2]. وهناك تقسيم للسياق عند فيرث ومدرسته إلى: السياق اللغوي، والسياق العاطفي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي [3].

ولا شك أن السياق في الحديث الذي معنا سياق تعلم وتعليم، فرسول الله – ﷺ– هو أمين الوحي، ومهمته تعليم الأمة، وتربيتها على الأخلاق والقيم الفاضلة، وهو المعلم الأول لأمته، ومن هنا يكون كل ما يصدر عنه بمثابة تشريع؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وما يقول إلا صدقا، في غضبه ورضاه، وفرحه وحزنه، ويطبق ما يأمر الناس به، فباطنه وظاهره سواء.

وإذا كان هذا حال الباث فحال المتلقي وهو معاذ حال طالب علم، يريد أن يعرف أمر دينه، ويبحث عما يقربه من الجنة، ويبعده عن النار، وهذا يومئ إلى افتراض مسبق هو إيمان معاذ بكل ما جاء به الرسول الكريم، ولم يكن إيمانه متوقفا على التزامه بأركان الإسلام المحسوسة فحسب من صلاة وزكاة وحج وصيام، وإنما تعدى هذه المرحلة إلى تحققه بأركان الإيمان فهو مؤمن بالغيب من ملائكة وكتب نزلت على رسل سابقين ويوم آخر فيه يكون الحساب ويستقر العباد بعده في الجنة أو النار. ومن هنا نجد سياق الحديث سياقا علميا، في مجلس علم، يسأل فيه من يريد معرفة الحقيقة الغيبية، لرسول قد أيده الله بالوحي من عنده، يبين للناس ما غمض عليهم من أمر دينهم.

وخلف معاذ جمهور عريض يستمع إلى حديث الرسول الكريم، يؤمنون بالرسول –كما يؤمن معاذ– ومحتاجون إلى بيان هذا الحديث –كما يحتاج معاذ– ومتشوقون إلى سماع هذا الحديث –شأنهم شأن السائل معاذ– ومن هنا سيكون حديث الرسول لمعاذ حديثا إلى جمهور المستمعين.

---

(١) نوال بو معزة، سمات التداولية في الحديث النبوي الشريف: حديث فضل العلم والعلماء نموذجا، ١٤٦، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد ٣٥، يوليو ٢٠١٥.

(٢) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ٦٨، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

(٣) إبراهيم أصبان، السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، ٣٤٣، ندوة أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية

وصلته بسلامة العمل بالأحكام، نشر الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، ٢٠٠٧م.

وخلف هذا الجمهور المستمع من كان في حاجة لنفسه، أو لأهل بيته، أو في مصالح المسلمين، ويحتاج إلى من يبلغه، ولا شك أن تبليغه سوف يلزمه بشيء جديد لم يسمعه، لكنه واثق تمام الثقة فيمن بلغه، وفيمن قال هذا الحديث، وأن لازم طاعة الله ورسوله يفرض عليه أن يطبق ما سمع وإن لم يكن حاضرا وقت البيان.

وخلف هذا الجيل أجيال من أمة الإسلام آمنت بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، وقد وصل إليها هذا الحديث بطريق موثوق، لم يشك في سنده أحد، وليس في هذا الحديث شذوذ ولا علة، فأوجب ذلك عليهم أن يطبقوا منه ما علموا. وبذلك نرى أن السياق ليس لمن حضر هذا القول في الوقت المحدد، والمكان المحدد، ولكن القول موجه إلى مستمع كوني عام، يشمل كل من آمن بصاحب هذا القول، واتبع هداه. هذا هو سياق الموقف الذي قيل هذا الحديث فيه، وأما السياق العاطفي فيحدد درجة الانفعال قوة وضعفا، وهل هناك أقوى من عاطفة نبي يريد بلاغ دين الله لأمته، فلقد أحب أمته حبًّا جمًّا حتى أنه يطلب لها النجاة، ويخاف عليها من دخول النار، والأدلة على حبه الشديد لأمته كثيرة، منها أنه قال: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُبْعِدُكُمْ مِنْ النَّارِ، إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ. وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنْ النَّارِ، وَيُبْعِدُكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ، إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ)(١).

وعند تطبيق السياق الثقافي لابد أن نكون حذرين من خلفياته المعرفية حيث إن السياق الثقافي يتكون من خلفيات معرفية دينية وثقافية وأسطورية وعادات ترتبط بمجتمعات معينة ولا دلالة لها في مجتمعات أخرى، وكذلك موروثات حضارية تخص بعض البيئات. فلا نقول: إن النص وليد سياقه حتى لا تدخل هذه الحمولات المعرفية في ولادة الحديث الشريف، وفرق بين كونه وليد سياقه ومتوائم مع سياقه(٢).

وفي السياق اللغوي نجد كل كلمة في الحديث متوائمة مع ما قبلها وما بعدها، وهناك عبارات لا يتضح معناها إلا من السياق الذي وضعت فيه كما في: "كف عليك هذا" فالرواية التي نتعامل معها ليس فيها مرجع إلى اسم الإشارة، لكن

---

(١) السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، ١٨٠٣، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٢) أشار إلى هذه الفكرة الدكتور عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة النص، مرجع سابق.

العبارة يفسرها السياق البعدي، من قول معاذ: "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به" فعُلِم من السياق أن الإشارة كانت للسان، وإذا كان هذا من ناحية السياق اللغوي، فإن غياب مرجع اسم الإشارة يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استغنى عن المرجع اللغوي بالمرجع الإشاري المشاهد، فالمفهوم أنه قد أشار بيده إلى موضع اللسان بوصفه جارحة، والافتراض المسبق يجعلنا نقول إن الإشارة كانت للسان معاذ، لا للسانه – ﷺ- لكونه لا ينطق عن الهوى، وبهذا التفسير لمرجع اسم الإشارة تتعاضد الدلالتان اللغوية والمقامية الإشارية في تحقيق غرض الخطاب والتنبيه على أهمية التوجيه فيه.

كما أن سياق الموقف الذي وقع فيه الحديث يقتضي أيضا أن يكون قول الرسول الكريم: "ثكلتك أمك" ليس دعاء على معاذ، والثكل هو الفقد، وليس من طبع الرسول الكريم أن يكون فظًّا مع أصحابه، أو يتمنى موت أحدهم، وفقد أمه له، ولكن هذا كان من قبيل عادة العرب، أن يقولوا: "ثكلتك أمك"، "لا أبا لك"، "لا أم لك"، وقد تطورت دلالة هذه العبارة المسكوكة إلى التنبيه والزجر. فالمعنى كان مجازا في أول أمره، ثم مع كثرة استعماله تحول إلى عبارة كثيرة الورود على الألسنة، متطورة الدلالة بمعنى التنبيه.

وقد تحدث أصحاب نظرية السياق عن كفاية المتكلم اللغوية، (ولكنه يعتمد أكثر على كفايته التداولية التي تندرج تحتها قدرة المتكلم على إنجاز خطاب ملائم للسياق) [(١)]. وهذه الكفاءة التي يشيرون إليها هي التي وردت في حديث جوامع الكلم، وقد ذكر الجاحظ خصائص كلامه –ﷺ- بأنه (قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلُّف، وكان كما قال تبارك وتعالى: قُل يا محمد: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦] ... لم يسمع الناس بكلامٍ قط؛ أعمَّ نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبيَن في فحوى؛ من كلامه ﷺ)[(٢)].

---

(١) آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، ١٣٣، مرجع سابق.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٢٤، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٤٨م.

والتوجيه في أحاديث الرسول الكريم يكمن في أوامر ونواهٍ خاطب فيها الصحابة الكرام من واقع حرصه على معرفة ما يريده الله من عباده، ولقد كان النبي حليمًا بالناس رؤوفًا رحيمًا بالمؤمنين، فكان يخاطب الناس موجهًا، وهو أول من يأتمر بما يقول، ولذلك كان لخطابه صدى لدى المؤمنين فكانوا يتسابقون للاقتداء به في كل حركة وسكنة. وإلى جانب الأوامر والنواهي كانت هناك تشكيلات أسلوبية أخرى، استعملها الرسول الكريم في إقناع المخاطبين منها بقية أساليب الإنشاء، ومنها الأسلوب الخبري، ومنها أسلوب القصر، والإيجاز والإطناب وغيرها، ولم تفته الصورة التي تقرب المعنى في ذهن المخاطب وتوضحه.

المبحث الثاني: أفعال الكلام التوجيهية في حديث حصائد الألسنة

كان فلاسفة الوضعية المنطقية يؤمنون بأن اللغة هي وسيلة لوصف الأحداث والوقائع في العالم الخارجي من خلال عبارات إخبارية، فإن وافقت الواقع كانت صادقة وإن خالفته كانت كاذبة. فأنكر جون أوستين أن تقتصر وظيفة اللغة على ذلك، واعترض بأن هناك عبارات تشبه العبارات الوظيفية، ولا تصف وقائع العالم الخارجي، ولا يمكن وصفها بصدق ولا كذب. ومن أمثلتها: بعتك سيارتي، وأوصيت بثلث مالي لمستشفى الأطفال وغيرها.

ثم بدأ نظريته في أفعال الكلام في اثنتي عشرة محاضرة ألقاها في جامعة هارفارد، ونشرت بعد وفاته المفاجئة في ١٩٦٠م تحت عنوان: "كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟". وبناء على دراسته لأفعال الكلام، وما أضافه من بعده جون سيرل كان الغرض هو الإجابة على تساؤل مهم: كيف ننجز عملا حين ننطق قولا؟ وفي سعيه للإجابة وجد أن الفعل الكلامي يتكون من ثلاثة أفعال، فدرسها لكن لم يفصل بينها إلا بغرض الدراسة، وهي: الفعل اللفظي الذي هو أصوات لغوية منتظمة في تركيب نحوي صحيح ينتج دلالة معينة. والفعل الإنجازي الذي يعني ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مختفٍ وراء المعنى الأصلي. والفعل التأثيري وقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع.

وقسم سيرل أفعال الكلام إلى خمسة أقسام هي: الإخباريات التي تصف واقعة معينة، والتوجيهات التي توجه المتلقي إلى فعل شيء معين، والالتزاميات التي يلزم فيها المتكلم نفسه بفعل شيء معين في المستقبل، والتعبيريات التي يعبر فيها المتكلم عن ذات نفسه، والإعلانيات التي يعلن فيها المتكلم عن موقف معين. وقد ناقش هذا التقسيم الدكتور محمود نحلة ووضع لفظة الطلبيات بدلا من التوجيهيات، ووضع لفظة الإيقاعيات في موضع الإعلانيات [١].

وفي الحديث الذي هو موضوع الدراسة نجد أن أكثر هذه الأنواع تكررا هي الطلبيات، ولا غرابة في ذلك فالرسول الكريم مشرِّع، وما يلقيه إلى المؤمنين إنما هو فيه مبلغ عن ربه، وهو مطالب ببيان كل ما يهم المسلمين من أمر دينهم. وقد ورد

---

(١) محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ١٠٠- ١٠٤، مرجع سابق.

الطلب في صورة الأمر الصريح مرتين؛ مرة من معاذ حين قال: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. ومرة من النبي الكريم حين قال لمعاذ: كُفَّ عليك هذا. ولعل هذه القسمة العادلة في الطلب لأن الحديث كان حوارًا تتنقل فيه الأدوار بين الطرفين؛ فيتحول المتكلم إلى مخاطب والعكس. نستطيع أن نقول: إن الغرض الإنجازي لأمر معاذ للرسول الكريم: "أخبرني" إنما هو التماس منه لرسول الله أن يخبره بما فيه صلاحه، ذلك أن الأمر موجه من الأدنى منزلة إلى الأعلى حيث مقام النبوة الذي يعرفه معاذ تمام المعرفة. وعلى الرغم من أن البلاغيين جعلوا الأمر من الأدنى إلى الأعلى "دعاءً" إلا أنني لا أعده كذلك، إذا كان من بشر إلى بشر، حتى لو كان هذا البشر رسول الله، فالدعاء لا يكون إلا لله، والأفضل أن يكون الغرض الإنجازي منه الالتماس. وقد حدد أوستين الشروط التي يتحقق النجاح للفعل الكلامي من خلالها وهي:

١- الشروط الأولية: وهي تحدد وضعية المتكلم، وهل تسمح له بإصدار الطلب أو لا؟ وهل لديه سلطة على المخاطب أو لا؟ فإن لم يكن ذا سلطة تخول له أن يأمر فلا إنجاز.
٢- الشروط الجدية: وهي التي تقيس مدى صدق المتكلم في كلامه.
٣- الشروط الأساسية: وهي التي تحدد مدى قصدية المتكلم، وأنه صاحب فكرة يريد أن ينقلها إلى المخاطب، فتكون راسخة في ذهنه كما هي راسخة عند المتكلم.

وفي الطلب غير المباشر الذي حدث من معاذ للرسول الكريم حيث التمس منه أن يعلمه ما يقربه من الجنة، ويبعده عن النار نجد هذه الشروط غير متحققة؛ فمعاذ – رضي الله عنه – ليس في وضعية تسمح له بطلب شيء من الرسول الكريم على وجه الإلزام، على الرغم من صدقه، وكونه قاصدا ما يقول. ولذلك حدث خرق للشرط الأول، وهو: أن يكون المتكلم صاحب سلطة على المخاطب، وهذا لم يحدث، فلذلك حكمنا على هذه العبارة بأن الطلب فيها ضمني، قد خرج عن معناه الحقيقي إلى الالتماس، وأما الأمر الصادر من الرسول لمعاذ: "كف عليك هذا" فنجد الأمر الإنجازي هنا هو الإلزام، والأمر حقيقي؛ لأن الآمر له سلطة تعلو على سلطة المتلقي، ومكانة فوق مكانة المتلقي، ولذلك كان الأمر حقيقيا، والأمر فيه ملزم بكف اللسان، وعدم إطلاقه ليتكلم في الأعراض وغيرها.

وحتى لا يلتبس الأمر الحقيقي بالأمر الضمني ذكر الدكتور محمود نحلة ثلاثة فروق بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة [١]:

الأفعال الإنجازية المباشرة	الأفعال الإنجازية غير المباشرة
القوة الإنجازية فيها ملازمة لها في كل المقامات	القوة الإنجازية فيها موكولة إلى المقام
القوة الإنجازية فيها لا يجوز أن تلغى	القوة الإنجازية فيها يجوز أن تلغى
القوة الإنجازية تؤخذ من تركيب العبارة	القوة الإنجازية لا نصل إليها إلا بعد عمليات ذهنية متفاوتة البساطة والتعقيد

وحين يختار المتكلم التعبير غير المباشر فعليه ألا يغفل جانب اللغة الدلالي، فإن المعنى الثاني/ غير المباشر يتوقف على فهم المعاني المباشرة، ثم يتم الانتقال منها إلى غير المباشرة بواسطة القرائن والسياق والعرف وغير ذلك. وفي هذه الحالة يكون المعنى المباشر غير مقصود، والمعنى الآخر هو المقصود. ولما كان الأمر الظاهر أو الطلب الصريح من معاذ للرسول الكريم –لو حمل على ظاهره من حيث إفادة الإلزام– متعذرا فإن من يقرأ الحديث ينتقل من المعنى الظاهر للألفاظ إلى المعنى الثاني وهو دلالة الالتماس.

إن الأصل في الأمر والنهي أن يوجها إلى المخاطب؛ لأنهما طلبيان، والطلبيات عموما يقصد بها توجيه المخاطب نحو شيء بعينه؛ قد يكون فعلا حين يكون الطلب أمرًا، أو يكون كفًّا حين يكون الطلب نهيًا. ولأن الطلب ثقيل على نفس المخاطب، فلذلك يرد بصيغ متفاوتة حسب قوة الآمر، ومدى علمه بانقياد المأمور، ثم حين يكون المأمور طيعًا فإن الآمر يتحاشى الطلب المباشر –في كثير من الأحيان– إلى صيغ أخرى لا تحمل الطبيعة الطلبية، ولا تنبئ عن الاستعلاء الذي يكون سلطة لدى الآمر. ولهذا تعددت صيغ الطلب في الحديث الشريف حتى أن صيغ الأمر التي وردت في موضعين: واحد منهما –فحسب– هو الذي كان مباشرًا، أما الآخر فكان يحمل معنى الالتماس، وهو معنى يخرج الأمر عن حقيقته التي هي الإلزام ليدخل في دائرة أخرى لا تفيد الطلب الصريح.

---

(١) محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ٨٣– ٨٤، مرجع سابق.

وإذا كان الطلب الصريح بهذه المثابة في خطاب الرسول الكريم لأمته فقد كان الأمر الضمني – الذي تغيرت فيه صورة الأمر حين تغيرت الصيغة– في أحد عشر موضعا خمسة منها جاءت بالفعل المضارع: تعبد الله– تقيم الصلاة– تؤتي الزكاة– تصوم رمضان– تحج البيت. وست مرات جاءت صيغة الاسم مفيدة الأمر الضمني كما في: الصوم جُنَّةٌ، الصدقة تطفئ ....، صلاة الرجل ... (لو كان القصد إلى فعل الصوم فهو مصدر، وعلى كل فالمصدر اسم كذلك)، رأس الأمر الإسلام، عموده الصلاة، ذروة سنامه الجهاد. فهذه ستة أوامر ضمنية. ولعل المغايرة التي تمت بين الأوامر الضمنية لها معان بلاغية، فالتعبير بالفعل في: تعبد الله ... إلخ جاء تفاديا للأمر المباشر الذي يُشَمُّ منه رائحة الإكراه، ثم في التعبير بالفعل المضارع ما يفيد ضرورة الاستمرار على هذه الأفعال، فلا يصح أن يفعلها العبد مرة واحدة، أو عدة مرات ثم يتركها. إن العبادة وإقامة الصلاة وغيرها مستمرة ما دام العبد حيًّا وفي القرآن الكريم: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [الحجر ٩٩]. فالفعل الإنجازي في هذه الأوامر الخمسة –وفي داخلها نهي جاء في صورة نفي "ولا تشرك به شيئا" فهذه ستة أفعال طلبية– لا يقصد به الإلزام فحسب، ولكن المداومة على الفعل –وكذلك المداومة على ترك الإشراك بالله– إلى أن يأتي الأجل المحتوم بالموت.

ثم كان التعبير بالاسم أو بمصدر الفعل في ثلاثة أخرى؛ ليشمل ثلاثة أوامر هي الصيام والصدقة وصلاة الليل، ولأنها سنن فقد ينقطع عنها العبد بحجة أنها ليست بفريضة فكان التعبير بالاسم مفيدا الدوام والثبات على هذه الأفعال لأنها أبواب الخير، وما دامت بابا من أبواب الخير فلابد من الدوام والثبات عليها حتى تحقق الغاية المرجوة منها. والفعل الإنجازي في هذه الطلبيات هو الثبات على هذه الأفعال التي ترتب عليها وعد من الله تعالى –ولا نقول التزام كما يقول أصحاب النظرية التداولية على الرغم من قوله تعالى: (وعدا عليه حقا) إلا أننا نؤمن بأن الله لا يجب عليه شيء [1]– وهي قرة العين بدخول الجنة، ولا شك أن هذا الوعد حافز

(١) من مبادئ المعتزلة: أن الله لا يجب عليه شيء، لكننا لا نقصد ما رتبوه على هذه القاعدة، وليس هذا موضع التفصيل، إنما نقصد التأدب مع الله فلا نوجب عليه شيئا إلا ما أوجبه على نفسه.

قوي على الثبات في أداء هذه العبادات التي -إن كانت ليست واجبة الفعل لكن الأجر والثواب المترتب عليها دافع قوي لا لإنجازها، ولكن للثبات على فعلها ابتغاء وجه الله وثوابه.

ثم يأتي التعبير بثلاثة أسماء أخرى هي بمثابة الأسس التي يبنى عليها الدين، ولابد من أن تكون ديدنا ثابتا لا يَحُولُ ولا يزول، وهي الثبات على الإسلام، وعلى الصلاة، وعلى الجهاد. وهل الجهاد لابد أن يكون ديدنا وصفة ثابتة عند العبد؟ والإجابة أن الجهاد واجب، وله صور منها جهاد النفس، وجهاد العدو؛ فجهاد النفس لكي تحقق معالي الأمور، وجهاد العدو حتى يأمن المؤمن وهو يؤدي عبادته لربه. وهذه الأوامر التي وجهها النبي الكريم إلى معاذ -والأمة من بعده- إنما كانت في ذهن النبي الكريم منقوشة -على حد تعبير السيوطي- ثم طلب أن يحصل لها مطابق في الخارج، والغرض من ذكرها التأثير في المتكلم ليفعل هذه الطلبيات، حتى يتحقق له ما أراد من التزام -ولنسمه وعدا- من الله بأن يباعد العبد من النار، ويدخله الجنة.

ولماذا جاء هذا الحديث متوسلا صورة الإطناب؟

حين نحتكم إلى المبادئ التي وضعها أصحاب النظرية التداولية سنجد أن جرايس جعل همه منصبًّا على التفريق بين ما يقال وما يقصد، فسعى لإقامة معبر أو جسر بين القول الصريح ذي المعنى المحدد، وما يحمله الكلام -أحيانا- من معنى ثانٍ مختفٍ وراء الألفاظ غير المقصودة. وقد حاول حل إشكالية الاختلاف بين ما يقال وما يقصد من خلال مبدأ حواري مشترك بين المتكلم والسامع سماه: مبدأ التعاون، ويقوم التعاون على أربعة مبادئ جزئية هي:

١- مبدأ الكم: وقصد به أن يكون إسهام المتكلم في الحوار منضبطا بالقدر المطلوب فلا زيادة ولا نقصان.

٢- مبدأ الكيف: وقصد به أن يقول المتكلم ما يعتقد أنه صحيح، وأن يتجنب ما ليس عنده دليل يدل عليه.

٣- مبدأ المناسبة: وقصد به أن يجعل المتكلم كلامه مناسبا للموضوع الذي يتحدث فيه.

٤- مبدأ الطريقة: وقصد به أن يكون المتكلم واضحا ومحددا يتجنب الغموض واللبس موجِزًا وكلامه مرتب [١].

ومعلوم أن الكلام إذا جاء موافقا لمبدأ التعاون الذي قال به جرايس فإنه لا يكون فيه استلزام، فلا يتحقق الاستلزام الحواري إلا عند مخالفة مبادئ التعاون الفرعية وانتهاكها، كأن يخالف المحاور من يتحاور معه في مبدأ الكم أو الكيف أو الطريقة أو المناسبة. وقد حدث ذلك في الحديث الشريف في أماكن. أولها: حين أجاب النبي -ﷺ- معاذا بقوله: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه) فهذه المقدمة التي استهل بها حديثه تخرق مبدأ الطريقة الذي يدعو إلى الإيجاز.

وحين نحاول فهم هذا الإطناب الذي سلكه الرسول الكريم طريقة حجاجية قبل أن يجيب، سنجد أن هذه المقدمة ضرورة تداولية؛ لأسباب منها: جذب انتباه المخاطب (معاذ ومن معه من الحاضرين في السياق والمقام، ومن سيأتون بعدهم إلى يوم القيامة)، كما أن فيها تقديرًا لسؤال السائل، واحتراما لعقله، فلو أن الرسول الكريم -وحاشاه- قد سفه من سؤال معاذ، وقال: هذا سؤال لا قيمة له، لكان قد آذى معاذا، ومنع أي سائل من السؤال عما يهمه في أمر دينه ودنياه، كما أن في هذه المقدمة بيانًا لأهمية ما سيذكر بعدها فالحديث عن أركان الإسلام، ولها قيمة كبرى فبغيرها لا يقوم الدين.

والنبي الكريم قد أوتي جوامع الكلم، فلماذا يأتي بعض كلامه بطريقة الإطناب؟

والحقيقة أن الإطناب والإيجاز أمر نسبي يختلف من شخص إلى شخص، وأن الإطناب في بابه كالإيجاز في بابه، لا يصلح أحدهما في موضع الآخر، وأن الذي يسمى إطنابا في كلام الرسول الكريم قد يعد في كلام غيره إيجازا، إذ أن النبي الذي أوتي جوامع الكلم لو أراد أحد أن يعبر عن المعاني التي عبر عنها لاحتاج إلى

---

(١) ينظر في مبدأ التعاون: محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ٣٤، مرجع سابق.

كلام كثير فيصير إطنابه بالمقارنة مع غيره إيجازا. ثم إن الأصل في كلام العرب أن يكون الإيجاز -وهو غالب كلامه ﷺ- ليحفظ، والإطناب ليفهم السامع (١).

ثم إن هناك معانيَ تكمن وراء هذا الإطناب تجعل هذه الطريقة الخطابية التي سلكها الرسول الكريم هي الأنجع والأولى لإيصال المعنى الذي يأتي بعدها. ولم يقتصر الإطناب في الحديث (أو سمه الخرق لمبدأ الطريقة) على تلك المقدمة، بل فتح للسائل أبوابا أخرى لها الأهمية نفسها التي يتحدث عنها الرسول، من مثل: سؤاله لمعاذ: ألا أدلك على أبواب الخير؟ وكذلك: ألا أخبرك برأس الأمر ...؟ ثم قوله: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ وكل هذه الأسئلة لم يسألها الصحابي، لكن الأمانة التي يتحملها صاحب الرسالة تجعله يوضح ويبين ويشرح، ولا يترك خيرا إلا دل عليه، ولا شرا إلا نهى عنه.

ومن المعلوم أن الحديث النبوي أسلوب تعليمي؛ لأن النبي مشرِّع، ومبلِّغ ومعلِّم. والتناول الغربي يحط من شأن الأسلوب التعليمي، فقد قسم رامان سلدن الأساليب إلى ثلاثة: المتدني والمتوسط والمرتفع وفقا لآراء سيسرو في أنواع الخطابة، فالأسلوب المتدني هو الأسلوب الواضح والغرض منه إقامة الدليل، والأسلوب المتوسط الغرض منه المتعة، والأسلوب الرفيع للإقناع. ثم يشير إلى أن الأسلوب المتدني هو التعليمي، وأصحابه واضحون، وموجزون في الأسلوب، يشرحون كل شيء، يستخدمون أسلوبا مركزا خاليا من الزينة والزخرفة (٢). وإذا كانت الرؤية الغربية تضع من شأن الأسلوب التعليمي، فإن البلاغة النبوية، والأسلوب النبوي تميز بخصائص جعلت نصه فريدا، ومن هذه الخصائص: تفرده واطراده وديمومته، التفرد لأنه يجمع بين غاية الإيجاز -بالمفهوم الذي تحدثنا عنه قبل من كون الإيجاز والإطناب نسبيين- مع تحقيق غاية الإفهام والتوضيح. واطراده بمعنى سير

---

(١) على حد ما ورد عن أبي عمرو بن العلاء حين سئل: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، [ومقصد السمع الإفهام]. قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها. وقال الخليل بن أحمد في المعنى نفسه: يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ. [ابن رشيق، العمدة، ١/ ١٨٨- ١٨٩، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م].

(٢) نظرية النقد من أفلاطون إلى الآن، ٣٦٥، نقلا عن: د. عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة النص، ٤٢، مرجع سابق.

الأسلوب على نمط واحد؛ من حيث إنه لا يتفاوت علوا وانخفاضا، ولكنه يسير على نمط واحد غاية في البلاغة، فيحقق الإيجاز مع الإفهام والبيان. وأما الديمومة فهي تنفي عن الحديث فكرة الطفرات التي تجعله يعلو بأسلوبه في وقت معين، أو حالة نفسية معينة، أو في مكان معين، أو في موضوع دون آخر، وإنما هناك دوام للأداء البلاغي الراقي الجميل في كل وقت فهو أداء مبدع له ديمومة وثبات.

إن الحديث الشريف -الذي نتناوله- مبني على فكرة الإطناب بقصد توضيح أمور الدين، ليس لمعاذ ومن كان شاهدا في السياق والمقام، ولكن لكل من آمن بمحمد نبيا ورسولا، ومعاذ رجل مُقْبِل متشوق للحديث، يريد معرفة ما يقربه من الجنة ويباعده من النار، فحال المخاطب هي التي جعلت الرسول الكريم يطنب في حديثه مراعاة للحال والمقام. وقد كان الحديث حوارا بدأ بسؤال، ثم جواب عليه، ثم سأل المتكلم -وهو الرسول الكريم- متلقيه إن كان يريد زيادة، فزاده، ثم سأله مرة أخرى، ثم زاده، ثم مرة ثالثة، ثم زاده، ويلاحظ في سؤاله الكريم لمعاذ أول مرة: ألا أدلك على أبواب الخير؟ أنه لم يمهله حتى يجيب، وهذا كان لعلم النبي بإقبال معاذ عليه، ورغبته في معرفة الخير، لكنه في المرة الثانية والثالثة كان ينتظر منه الرد، وذلك خشية السآمة والملل. ورسول الله أخبر الناس بما يقول، فلو أحس أن السائل قد اكتفى بما ذكره له، سيسكت ولا يكمل.

إن الحديث الشريف كله خرق لمبدأي الكم؛ حيث إن الرسول الكريم زاد على القدر المطلوب منه، ثم هو كذلك خرق لمبدأ الطريقة، فهذا المبدأ يقوم على الإيجاز، والأسلوب التعليمي يستلزم التوضيح والشرح والتفسير حتى يكون الناس على علم بما هو حق الله عليهم. ومن هنا كان الخرق لتحقيق غرض بلاغي مهم هو البيان والتبليغ عن رب العباد. ولأن معاذا مؤمن برسول الله، مقتنع بأنه مرسل من ربه كان هذا الأسلوب الحواري الذي تم بينه وبين الرسول الكريم، فلديه قناعة سابقة وإيمان راسخ بالرسول الكريم، فلذلك سأله عن عالم الغيب: عن الجنة والنار، فلديه يقين في وجود الجنة والنار على الرغم من أنه لم يرهما، لكن إيمانه بالرسول الكريم يجعله مؤمنا بهما، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان بالله. فلولا الافتراض المسبق وهو الإيمان بما جاء به محمد ما قال له: يا رسول الله مرة، ويا نبي الله أخرى.

وفي الحديث طلب آخر في صورة الاستفهام الصريح، وقد ورد في أربعة مواضع: الأول منها استفهام حقيقي، والثلاثة الأخرى مجازية، والأول حقيقي؛ لأن السائل فيه معاذ، وهو يطلب المعرفة، ويريد الفهم، وأما الثلاثة الأخرى فقائلها هو الرسول -ﷺ- وكلها مجازية؛ اثنان منها الغرض الكامن وراء اللفظ هو التشويق والتحفيز، والأخير غرضه الإنكار والنفي. وجاء الاستفهام في صورة ضمنية -بغير أداة- وقد فهم من السياق، ونبر العبارة، وهو قول معاذ: "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به". وظاهر العبارة أنها خبر لكن نبر العبارة، وسياق الكلام، أفاد الاستفهام، بدليل الكلام الذي قبلها، وكذلك ردّ الرسول الكريم عليه.

إن صورة الاستفهام إذا طلب به معناه الحقيقي صورة ضعيفة في القوة الإنجازية، لأنها طلب للفهم، حيث يطلب ارتسام صورة ما الواقع في الذهن. لكن الاستفهام البلاغي قوته الإنجازية قوية؛ والاستفهام من الفنون التي تنشط حركة الحديث، وتثري جانب الحوار، وهو وسيلة مهذبة مع المخاطب حتى يستجيب للطلب، وهو وسيلة إقناع جيدة، وحين تصدر من صاحب سلطة على المخاطب فهي تشير إلى الرقي الأخلاقي من المتكلم، هي توجيه بطريق غير مباشر، وتواضع ممن يملك سلطة الأمر، وتعطي للمخاطب فرصة المشاركة والحوار، وتجعله راضيا عن سير الحوار، لأن المتكلم يستأذنه قبل أن يلقي إليه الطلب.

وفي الحديث نجد الرسول الكريم صاحب السلطة العليا للمؤمنين به يسأل معاذا: ألا أدلك.. ألا أخبرك.. ألا أخبرك. وفي الأسئلة الثلاثة كان الغرض من السؤال التشويق والتنشيط لينصت لما يقال، وجذب الانتباه حتى يتعلم ما هو خير له. هذه التوجيهات الضمنية الثلاثة خرجت عن معانيها الحقيقية إلى ما ذكرنا من معان مجازية، ولقد كان الرسول الكريم عالما بحال من أمامه فهو يلقي مجموعة من التوجيهات، ثم يتوقف ليرى مدى استعداد المخاطب لتلقي مزيد منها، فإذا آنس منه رغبة ألقى إليه طائفة أخرى، وقد تكرر هذا الاستفهام ثلاث مرات، إن دور الاستفهام لا يقف عند الإقناع العقلي بل له علاقة بالتأثير القلبي، فهو يجدد النشاط، ويشحذ الهمم، ويشوق السامع إلى ما بعد السؤال.

ويلمح في الحديث أمران لهما علاقة بالاستفهام: الأول: التكرار حيث تكرر الاستفهام ثلاث مرات، وهذا التكرار تأكيد على أهمية الرسالة، وحرص الرسول الكريم

على ألا يضيع من هذه المبادئ العظيمة شيء ولو قليل، والتكرار يقرر المعنى في نفس المتلقي، ويمكنه منه، ويجعله يدرك اهتمام المتكلم بالمكرر. ولأن الأمر ليس واقفا عند معاذ وحده بل وراءه من حضروا هذا المشهد، ثم الأمة كلها إلى يوم الدين كان هذا التأكيد على الرسالة ومضمونها، من خلال تكرار السؤال. والأمر الثاني: التدرج في الطلب، فأول ما يطلب من المسلم أركان الإسلام، لذا كان البدء بها، ثم الدلالة على أبواب الخير، وهي سنن ترفع قدر العبد عند ربه يوم القيامة، ثم ثوابت وأسس لا يصح أن يتخلى المسلم عنها في حياته؛ لأنه معرض لفتن وحروب وإقبال دنيا ومتع ترد على العبد، ووسوسة من الشيطان، فكانت الوصية الثالثة، أو التوجيه الثالث. فهذا التدرج (يوحي بالمنطقية مع النفس البشرية من أجل إقناعها) [(١)]. والغرض من الاستفهام تغيير قناعات بل تغيير سلوك واعتقاد، وكان لابد فيه من التدرج التنازلي من الأهم إلى المهم.

أما الاستفهام الأخير فقد كان من معاذ للرسول الكريم، وقد لاحظنا دوران الحديث في هيئة حوار بين طرفين فاعلين، ويميز استفهام معاذ عن الاستفهامات السابقة ثلاثة أمور: الأول: كونه بغير أداة؛ وحذف الأداة هنا مسارعة إلى المقصود، وقد قام النبر، وتغيير طريقة النطق مقام هذه الأداة حين سأل: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ الثاني: تأكيد مضمون الكلام باستعمال إن ولام الابتداء التي زحلقت إلى الخبر، وسبب هذا التأكيد الدهشة والتعجب من كون الدين يكون له حكم على مجرد الكلام، وهذا ما جعل الرسول الكريم يرد عليه هذا الرد الشديد: "ثكلتك أمك" ثم يؤكد معنى الكلام الأول الذي يجعل العبد مراقبا ومراعيا لربه وهو ينطق بالكلمة مازحا أو جادا. ولقد كان علماؤنا يجعلون الكلام خاليا من التأكيد لخالي الذهن، ويؤكدون الكلام ببعض المؤكدات للمتردد، ويكثرون من التأكيد للمنكر –على حسب قوة إنكاره وضعفها– ويبدو أن معاذا بهر بالكلام فاستعمل أكثر من مؤكد ليس لتكذيب الرسول

---

(١) ناغش عايدة، الاستفهام في الحديث النبوي من منظور مباحث التداولية، ١١٧، رسالة ماجستير منشورة على الشبكة الدولية (الإنترنت)، جامعة مولود معمري –تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١٢م.

الكريم، ولكن التوكيد كان لشدة هذا الأمر عليه، وعلى بقية الأصحاب، وعلى الأمة إلى قيام الساعة، فما أسهل الكلام! ولكن ما أشد خطره على دين العبد!

الثالث: أن المعنى المجازي أو القوة الإنجازية الضمنية تخالف ما سبق ما استفهامات الرسول الكريم، فالاستفهام عند معاذ استفهام استغراب أو إنكار، بينما كان عند الرسول الكريم للتشويق والتحفيز.

ثم كان الاستفهام الأخير من الرسول الكريم -ﷺ-: وهل يكب الناس في النار ... ذا قوة إنجازية عالية؛ حيث إن هذا الاستفهام يفيد معنى النفي، وقد جاءت الأداة مرة ثانية بعد أن حذفت في استفهام معاذ، فقامت مقام النفي في أسلوب القصر، فحملت معناه، والفعل الكلامي في الاستفهام يكمن في تجنب عثرات اللسان، وضرورة الحرص في النطق؛ لأن اللسان يكب الناس في النار على وجوههم أو مناخرهم، ولماذا المناخر وقد كانت الوجوه كافية؟ إن الذين يتزيدون في الكلام ما يقصدون بهذه الزيادة إلا التفاخر، ورفع القدر، وتزكية النفس فاختيار كبهم على مناخرهم لما فيه من الذل، والظهور بصورة مهينة، وكسر الأنفة التي كانوا يتزيدون في الكلام لأجلها.

المبحث الثالث: الحوار وأثره التداولي في حديث حصائد الألسنة

يدور الجذر اللغوي للحوار حول الرجوع، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة (١). ولا يخرج المعنى الاصطلاحي بعيدا عن المعنى اللغوي، فهو حديث بين طرفين أو أطراف متعددة لعرض وجهات النظر حول مسألة متنازع عليها، بقصد الوصول إلى حل مناسب لهذه المسألة (٢). ويشترط في المحاور عدة شروط منها:

١- أن يكون عالما بما يدعو إليه.

٢- أن يحدد الهدف الذي يرجوه من المحاورة.

٣- أن يكون عالما بالحالة النفسية والاجتماعية للمحاوَر.

٤- أن يعطي المحاوَر حقَّه من الاحترام.

٥- أن يكون جاهزا نفسيا لأداء رسالته (٣).

من فوائد الحوار في جانب المتكلم فإن الحوار يسهم في إيصال المعلومة بشكل صحيح ليس فيه جهد كبير على المتكلم، ويزيد الارتباط بين المتكلم والمتلقي، ويوقف المتكلم على مدى ما لدى السامع من معلومات، واكتشاف أوجه التعاون والاتفاق بين المتكلم والسامع فتسهل قضية الإقناع، ويسلك المتكلم السبيل الأمثل لصياغة الحجة التي تجعل السامع يذعن للقضية التي يتم الحوار حولها.

ومن فوائد الحوار على المتلقي أنه يعوده على الإيجابية والمشاركة الفاعلة في مجرى الحدث، ويقرب الأفكار والآراء، ويصحح ما قد يفهم خطأ من حديث المتكلم، ويشبع الحاجة إلى العلم، ويزيد المعلومات والأفكار، ويتوصل به لكشف الحقيقة، كما ينم عن شجاعة أدبية لدى المتلقي، ويتيح فرصة التعبير عن الذات.

وفي حديث حصائد الألسنة بدأ الحديث بسؤال من معاذ، والسؤال يثري جانب الحوار، وتبادل الرأي، ويفتح مجالا للتزود من العلم، وبالفعل رد عليه النبي

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: حور.

(٢) سعيد بن نزال العنزي، أساليب الإقناع في الحوار النبوي وأثرها الإيجابي في عملية التواصل، ٧٤، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، مجلد ٢٣، العدد ١، ٢٠١٥م.

(٣) الرشيد أبو عاقلة دفع الله، من أساليب وآداب الحوار في سورة الشعراء وتطبيقاتها التعليمية والتربوية، ١٦، مجلة دراسات دعوية، العدد ٢٦، ٢٠١٣م. بتصرف.

الكريم بما يشفي صدره، ثم أدار النبي الحوار بعد ذلك، فكان هو الذي يسأل ومعاذ يجيب، وهذه الوسيلة الحجاجية فعالة في تقرير المعاني وتثبيتها في ذهن المتلقي، وما دام الحوار متناولا من الطرفين فكل منهما يعرف ما يفكر فيه الآخر، معاذ يسأل، فتأتيه الإجابة، ثم يلمس النبي الكريم شغفًا لدى معاذ أن يعرف أكثر، فيتوجه الرسول الكريم نحوه سائلا: ألا أدلك على أبواب الخير؟ وما يترك الرسول فرصة لمعاذ كي يجيب، بل يسأل ويبادر بالجواب لما يعلمه من حال المخاطب من حرص على العلم، والسعي نحو أبواب الخير التي هي باب إلى الجنة.

ثم يعود الرسول الكريم للسؤال مرة ثانية، ولكن يخشى أن يكون المخاطب قد تشبع من العلم، وهنا ينتظر إجابة معاذ؛ إن كان يريد الزيادة أو لا يريد، فلما قال معاذ: بلى. أجابه النبي الكريم، ثم عاد وسأل مرة ثالثة، وهنا انتظر -كذلك- حتى يجيبه معاذ، حيث إن طول الكلام من شخص الرسول الكريم الذي أوتي جوامع الكلم، وعرف عنه الإيجاز لا شك أنه مفيد وضروري، ولكن المشرِّع وهو الرسول الكريم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه لا يعتمد على مكانته التشريعية فيظل يتكلم، حتى ولو رغب المخاطب في سكوته، أو ملَّ من كلامه. ولكنه يضع كلامه موضع الماء من ذي الغلة الصادي، فيستأذن في كل مرة تشويقًا للسامع، ودفعًا للملل عنه، وإشراكًا له في الحوار حتى يكون الحوار ثريًّا مثمرًا، فيسأل وينتظر الإجابة من معاذ.

ثم يعود للسؤال رابعا: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ وأيضًا ينتظر حتى يرد عليه معاذ، ثم يجيبه، ثم يتحول الحوار من النبي الكريم إلى معاذ ليعود محاوِرًا، بعد أن كان إسهامه في الحوار مقتصرًا على إجابة السؤال الموجه إليه من الرسول الكريم، فيقول: بلى يا رسول الله. هنا يسهم بشكل فعال في الحوار حيث يوجه السؤال الاستنكاري إلى الرسول الكريم، الذي خلا من أداة الاستفهام، وقام نبر الجملة مقامها، ليعود الرسول محاورا ومجيبا، وهكذا نجد الحوار ينمو بعد كل مشاركة في الحوار من كِلا الطرفين المتحاورين، حتى ينتهي الحوار بينهما بعد الحصول على كم كبير من المعلومات التي تنفع المسلم في دينه ودنياه، وتوجه سلوكه، وتضبط حركته في الدنيا، رغبة في الأجر والثواب، ودخول الجنة في الآخرة.

- توجيه الحوار بالإشاريات:

١- الإشاريات الكلامية

لقد قامت الإشاريات الكلامية بدور كبير في توجيه الحوار؛ فاللغات البشرية وُضِعتْ للتواصل المباشر بين الناس، وفقدان التواصل المباشر يضيع كثيرًا من مظاهر التواصل بين الطرفين، وقد يسود الغموض في فهم بعض العبارات نظرًا لغياب التواصل المباشر بين الطرفين وجهًا لوجه. وكان بيرس (Peirce) أول من تحدث عن الإشاريات، ومن الإشاريات الشخصية: ضمائر المتكلم والمخاطب، وهي منبثة في الحديث بصورة كبيرة، فضمير المتكلم ذكر أربع مرات في موقع الرفع (مسندًا إليه)، وثلاث مرات أخرى في موضع النصب (مفعولًا به)، وضمير المخاطب وقع عشر مرات في موضع الرفع (مسندًا إليه) وأربع مرات في موضع النصب. وهذه النسب المرتفعة لضمير المخاطب؛ لأن الحديث حوار، تتبادل فيه الأدوار فالمخاطب يتحول إلى متكلم، والمتكلم يتحول إلى مخاطب، ولذلك يتكرر ضمير المخاطب أكثر من غيره، والحديث من الوضوح بحيث يعرف فيه من المخاطب، ومن المتكلم حين تتبادل الأدوار. وقد ورد ضمير الغائب في الحديث في واحد وعشرين موضعًا، ولكنه لا يعد من الإشاريات؛ حيث إنه (يدخل في الإشاريات إذا كان حرًّا لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي) [(١)].

٢- الإشاريات الزمانية:

والإشاريات الزمانية تدور حول الكلمات التي تحدد الزمان، حين يعرف المقصود بذلك المكان، فلا يكون هناك لبس بتعمية الزمان، كمن يقول: سوف أسافر إلى الخارج بعد أسبوع، فإذا لم يكن المتلقي حاضرًا هذا الكلام، فإنه لا يعرف ما هذا الأسبوع. وفي الحديث الشريف تتردد معنا كلمتان هما: رمضان، ورمضان هذا اسم شهر معلوم، ولذلك لم يسأل معاذ عن رمضان، ولا وقته ولا أي رمضان يقصد؛ لأن هذه إشارة زمانية معلومة لديه. والكلمة الثانية هي: جوف الليل، وهي إشارة زمانية عامة تشمل الليالي كلها، فصلاة القيام كانت عند الصحابة الكرام محببة إليهم، فرغبهم النبي الكريم في مداومة صلاتها؛ لأنها باب من أبواب الخير.

---

(١) محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ١٨، مرجع سابق.

٣- الإشاريات المكانية:

وهناك إشاريات مكانية وتكون لها علاقة بالأماكن التي ذكرت في الحديث وهي: الجنة والنار والبيت والمضاجع، وكل واحدة منها تشير إلى مكان معين؛ فالجنة دار المتقين، والنار مستقر العاصين، والبيت هو المسجد الحرام، يحجه المسلمون، والمضاجع مواضع النوم. وكل هذه الإشاريات معلومة للسائل، واضحة المعاني، قريبة من ذهنه وعقله. فلا حاجة للسؤال عنها، وحيث لم يذكر مكان غير معلوم فلا حاجة للسؤال عن الأمور المعلومة التي تفهم من الحوار، وتظهر من النقاش. ومن ذلك قول الرسول الكريم: (كف عليك هذا) فقد أشار إلى اللسان الذي أخذ به، ولم تكن ثَمَّ حاجة إلى السؤال عن المقصود بكلمة "هذا" لأن حضور الموقف، وشهود السياق كفيلان بتحديد مرجعية اسم الإشارة، وهو ما سبق بيانُه.

٤- الإشاريات الاجتماعية:

وهي تعبيرات معينة تحدد العلاقة بين المتحاورين. وفي الحديث قال معاذ: "يا رسول الله" مرة، و "يا نبي الله" مرة أخرى، والتعبير بذلك يجعل معاذًا صاحب أدب جم، فهو لا ينادي الرسول الكريم فيقول: يا محمد، كما كان الأعراب يفعلون، لكنه مؤمن بالله مصدق برسوله، لديه قناعات إيمانية دفعته إلى التأدب مع شخص الرسول الكريم، فيناديه بوصف الرسالة والنبوة. على الجانب الآخر نرى تعامل النبي مع معاذ، فإذا كان معاذ قد استعمل الجانب الرسمي مع الرسول الكريم، فلقد استعمل الرسول الجانب الودي؛ وهي علاقة ألفة ومودة بين القائد الأعظم والمسلم المؤمن معاذ، فناداه قائلا: يا معاذ.

وهل مناداة الرسول الكريم لمعاذ فيها تجاوز للاحترام الذي ينبغي أن يكون موجودا بين الرجل وأتباعه؟ والجواب أن الجانب الرسمي -في هذه الحالة- يضع فواصل رسمية بين الرسول وأصحابه، إن حديثه حديث ودي بين مسلم وأخيه، وأما معاذ فكان يعرف قدر تواضع النبي معه ومع أصحابه، لكنه لا يبيح لنفسه أن يتبسط فينسى قدر الرسول عند ربه، وعند الناس، كما أنه يأتمر بأمر الله للمسلمين: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور، ٦٣].

المبحث الرابع: تقنيات الحجاج في حديث حصائد الألسنة

يدور الجذر اللغوي للحجاج حول القصد، ومنه الحج بمعنى: قصد البيت الحرام، والحُجة هي البرهان أيضا، ويقال: حاجه بمعنى: نازعه، وحجه بمعنى: غلبه(١).

وفي الاصطلاح تعددت تعريفات الحجاج قديمًا وحديثًا، عند العرب وعند الغربيين، فمن تعريفات البلاغة قديمًا التي كانت تعي أن مهمة اللغة الإقناع والتأثير في المتلقي ما ذكره أبو هلال العسكري الذي عرف البلاغة بأنها: (كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن)(٢). ومن التعريفات الحديثة ما ذكره طه عبد الرحمن من أن الخطاب الحجاجي هو: (كل منطوق به، موجه إلى الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها)(٣). على أن تعريفه أقرب إلى الحجاج الفلسفي. أما الحجاج اللغوي فهو: (فعل تواصلي يتكون من متواليات قولية، وحجج يصطفيها المحاج، ويرتبها على نحو مخصوص، يريد بها التأثير في المتلقي وإقناعه)(٤). والحجاج تقنية من تقنيات الخطاب، والخطاب مجال من مجالات التداولية، والحجاج عملية تواصلية، وتشمل كل ضرب من ضروب البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات (وينزل الحجاج عند ديكرو وأتباعه في صميم المدرسة البرجماتية؛ فبمقتضى اشتغاله بوظائف الخطاب يصبح مفهوم التفاعل مؤسسًا في أبحاث أصحابها) (٥). فهناك علاقة وثيقة بين الحجاج والتداولية.

---

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ح ج ج. وينظر أيضا: أبو البقاء الكفوي، الكليات، ٤٠٦، مرجع سابق.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص ١٠، تحقيق: علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٣) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٢٦، مرجع سابق.

(٤) شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ٣٦٠، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. إشراف حمادي صمود، الإدارة العامة للبحث العلمي بوزارة التعليم العالي، تونس، د.ت.

(٥) بخولة بن الدين، الحجاج في التداولية اللسانية، ١٧١، المجلد الثاني العدد الثاني، مجلة فصل الخطاب، الجزائر، ٢٠١٣م.

وقد كان فلاسفة اللغة يرون أن وظيفة اللغة تدور حول الوصفية والإبلاغية؛ بمعنى أن اللغة تصف ما يقع في العالم المحيط بالمتكلم وتحاكيه، لكن النظرية الحجاجية غيَّرت هذا المفهوم، وجعلت الحجاج وظيفة لغوية يقصد بها التأثير والإقناع. ومن هنا كانت دراسة التقنيات اللغوية التي يتوصل بها إلى التأثير والإقناع غاية الحجاج اللغوي. وأهم الفروق بين الخطاب الحجاجي وغيره من الخطابات الأخرى (أنه يؤسس على قصدية محددة، وهي نية الإقناع والتأثير في المتلقي، مستخدما آليات وتقنيات لفظية وغير لفظية، متوجها لمتلق مخصوص في موقف معين) (١).

ومن خلال حديث حصائد الألسنة نجد الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– قد استخدم تقنيات متعددة في سبيل إقناع معاذ والسامعين، ومن ورائهم المؤمنين إلى يوم القيامة. ومن هذه التقنيات التي استعملها:

(٤/ ١) **تقنية السؤال والجواب:** وقد ورد السؤال في الحديث ست مرات: أربع مرات من النبي الكريم، ومرتين من معاذ، وكنت قد أشرت –قبل– إلى أن الحديث تسيطر عليه تقنية الحوار بين النبي الكريم ومعاذ، ولأن الرسول صاحب الرسالة، وهو المبلغ عن ربه، كان صاحب النصيب الأكبر من الكلام، وقد تكرر السؤال في كلامه أربع مرات، وكلها ذات دلالة ضمنية، أو معان ثانية، منها ما هو تشويق وتحفيز، ومنها ما هو إنكار. وجاء السؤال عند معاذ في موضعين: الأول هو سبب بدء الحوار، وهو رغبة من معاذ في تعلم أمر دينه، وما يقربه من جنة ربه، وما يبعده عن النار. والثاني كان سؤالا تعجبيا إنكاريا، حين سأل عن اللسان وسمع من النبي الكريم وجوب كفه، وحبسه عن الكلام الكثير أو ذكر عيوب الناس. ويلاحظ أن الأسئلة التي سئلت قد أجيب عنها جميعا، وذلك يدل على روح التفاعل بين السائل والمسؤول، سواء من جانب معاذ، أو من جانب الرسول الكريم. ولا شك أن تقنية السؤال والجواب تهدف إلى عدة أمور منها: إذكاء روح الحوار وتجاذب أطراف الحديث، ومنها: التحفيز على التكلم والمحاورة، ومنها: تثبيت المعلومة في ذهن

---

(١) ليلة يوسف حميد يوسف، آليات الحجاج اللغوي في خطاب التطفيل، ٢٢، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد٤١، ٢٠١٣م.

المتحاور معه، ومنها: التشويق إلى المواصلة في الحديث، ومنها: قياس مدى نشاط السامع لتقبل المزيد من الحديث، ومنها: معرفة ما لديه من معلومات حول موضوع الحديث إلى آخر ما تفيده تلك التقنية العفوية التي استخدمها النبي الكريم في حديثه ليصل بها إلى التأثير في السامعين، ومن سيأتي بعدهم من الجمهور الافتراضي أو المتلقي الكوني.

(٤/ ٢) **تقنية النداء:** إحدى تقنيات الحجاج التي يقصد منها تنبيه المتلقي، وجذب انتباهه، وإقامة فعل تواصلي معه، وهو لطلب الإقبال حسًّا أو معنى. وفي الحديث ورد أسلوب النداء أربع مرات، وكلها من معاذ، وثلاثة منها بلفظ: يا رسول الله، وواحد بلفظ: يا نبي الله. والنداء هنا يوحي برغبة شديدة في العلم والتعلم، وفيه أيضا أدب الصحابي الجليل مع الرسول الكريم، وفيه كذلك التأدب في القول، فإن معاذ قد استعمل إشاريات اجتماعية عرف من خلالها قدر رسول الله ومكانته في أمته، فلم يناده باسمه المجرد، ولكنه ناداه بالرسالة ثلاثا وبالنبوة واحدة. كما أن في النداء افتراضا مسبقا، وهو إيمان معاذ برسالة الرسول، بل امتلاء قلبه بالإيمان، فقد آمن به رسولا، وصدقه فيما جاء به، ولذلك لم يناده إلا بما يدل على هذا الإيمان. إن معاذا حين حكى هذا الكلام عن الرسول الكريم كان الموقف قد انتهى، وربما مرت عليه أيام أو شهور أو أعوام، ومعاذ يذكر جيدا ما قاله لحبيبه، وقد كان يمكن أن يحذف كل النداءات سوى النداء الأول، ولم يكن ذلك ليوقع السامع في لبس ولا غموض، ولكنه الحريص على ترداد ذكر النبي الكريم، وفي كل مرة ينسبه إلى الله تعالى بكونه نبيا ورسولا.

(٤/ ٣) **تقنية التكرار والإطناب:** أحد أهم التقنيات التي يلجأ إليها المحاجج، وغرضه من هذه التقنية أن يؤكد المعنى في نفس السامع، ويلح عليها لترسخ في ذهنه لما لها من أهمية كبرى في سير الحوار، وما يترتب عليها من صلة بالحجاج. وفي الحديث الشريف نجد هذا التكرار يأخذ صورًا متعددة منها: الترادف المعنوي كما في قول معاذ: (يقربني من الجنة، ويباعدني من النار)، ومن البدهي في الدين أن الآخرة ليس فيها سوى الجنة والنار، وأن القرب من الجنة مباعدة من النار، لكن معاذًا نص على هذا المعنى بالترادف المعنوي لما يترتب على ذلك من فوز عظيم، (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) [آل عمران ١٨٥]، وأهمية الأمر تكمن

في أن خسارة دخول الجنة هي الخسارة التي لا خسارة أفدح منها، وأن النجاة من النار هي الفوز العظيم، ولذلك كان قلب معاذ متعلقًا بهذه القضية المصيرية، فعبر عنها بتكرار المعنى؛ ليكون كلامه زائدًا في التفصيل؛ ليحصل من خلاله تحديد ما يريد؛ كي يكون جواب النبي الكريم شافيًا كافيًا، مصيبًا صلب ما أراده معاذ؛ لينجو من النار، ويدخل الجنة. ومن التكرار تلك الصيغة النبوية: ألا أدلك؟ ألا أخبرك. وقد وردت في الحديث ثلاث مرات: مرتين بلفظ ألا أخبرك؟ ومرة واحدة بلفظ ألا أدلك؟ وهو سؤال يقصد به التشويق والتحفيز والتنشيط إلى الاستماع. ومع صيغة ألا أدلك؟ لم ينتظر النبي الكريم جوابًا، ولكنه أكمل حديثه، ومع ألا أخبرك؟ كان ينتظر الجواب من معاذ، وكنت قد ذكرت أن الصيغة الأولى كان معاذ متشوقًا، وما يزال نشيطًا مقبلًا، وفي الصيغة الثانية كان ينتظر منه الجواب حتى يعلم مدى إقباله وحرصه على الاستماع والتنفيذ. ومن التكرار كذلك تقرير الشيء بواسطة الأمر به، والنهي عن ضده، وفي الحديث: (تعبد الله، لا تشرك به شيئا) وعبادة الله تتضمن عدم الإشراك به، لكن النص على النقيض لأهمية هذه القضية فهي باب النجاة، وأصل الدين، ولا ينبغي أن يحيط بها أية شكوك مهما كانت قليلة، وهنا كان ذكر الضد لتأكيد المعنى الأول. وإذا كان الفعل الكلامي في (تعبد الله) مفيدًا لأمر ضمني صيغ في صورة خبر هو ضرورة أن يعبد العبد ربه، فهي بمثابة: اعبد الله، فإن في قوله: (لا تشركُ به شيئا) فعلًا كلاميًّا -أيضًا- سيق في صورة خبر مضمونه: لا تشرك بالله شيئًا. فقضية التوحيد سيقت بطلبين مختلفين: أمر ونهي لتكون القوة الإنجازية لهذه القضية في منتهى الوضوح والقوة. ومن الإطناب في الحديث: الإيضاح بعد الإبهام ففي قوله الكريم لمعاذ: (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير) بعض الغموض؛ إذ كيف يكون الأمر عظيمًا ويسيرًا في آن واحد؟ فجاءت العبارة: (على من يسره الله عليه) لتزيل هذا الغموض، وتجعل يسر الطاعة توفيقًا من عند الله، وليس بذكاء العبد، ولا فطنته. ومن سبل الإطناب في الحديث: التوشيع وله علاقة قوية بالإيضاح بعد الإبهام حيث إن أبواب الخير ذكرت أولا مجملة ثم جاءت مفصلة بعد ذلك، وفيها تشويق وجذب انتباه، وحث على التوق إلى ما يأتي بعد هذا الإجمال الموجود في عبارة: (أبواب الخير).

(٤/ ٤) **تقنية التوكيد:** من أهم التقنيات التي يتوسلها المتكلم ليحاج المتلقي، ومعلوم أن أسلوب التوكيد لا يأتي في الكلام عندما يكون المتلقي خالي الذهن، ويؤكد الكلام ببعض المؤكدات للمتردد، وبكثير من المؤكدات للمنكر، ويزيد عدد المؤكدات في الكلام ويقل على حسب قوة إنكار المتلقي وضعفها. وفي الحديث جاء الكلام خاليًا من التأكيد حين سأل معاذ سؤاله الأول؛ ذلك أنه لا يعرف الأعمال التي تقربه من الجنة، وتباعده من النار. وكذلك كان كلام الرسول الكريم كله حين سأله عن أبواب الخير، وحين سأله عن رأس الأمر وعموده وذروة سنامه، فلما سأل معاذ سؤاله عن المؤاخذة على الكلام كان توكيد الجواب أولا بعبارة: "ثكلتك أمك" ثم بأسلوب القصر، والاستفهام الذي يفيد النفي. كما ورد التوكيد في الحديث في بدايته ليس ردًّا على إنكار معاذ، ولكن توكيدًا لمضمون الكلام لأهميته، وهو ما يعرف في البلاغة العربية بالضرب الطلبي. ثم جاء السؤال الإنكاري من معاذ مؤكَّدًا بإن، واسمية الجملة، ولام التوكيد المزحلقة؛ لتوافق إنكار معاذ لأن يكون العبد محاسبًا على مجرد الكلام، ولذلك جاء الرد عليه مؤكدًا من الرسول الكريم.

(٤/ ٥) **تقنية الصورة البلاغية:** إن (طبيعة الحجج تختلف بين الصريحة الظاهرة، والمضمرة المتضمنة في ثنايا الخطابات التي يسوقها المتكلم إلى مخاطبه بغية إقناعه وتوجيهه وجهة معينة دون أخرى) (١). ولكي يحقق المتكلم غاياته التي يسعى إليها يتوسل بالصورة البلاغية، فقد تقدم الصورة حمولة معرفية إبلاغية وإقناعية تساوي حمولتها الجمالية، وتشمل الصورة البلاغية: التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز العقلي والمرسل.

(٤/ ٥/ ١) **التشبيه:** وهو أحد عناصر الصورة البلاغية التي يتم بها الإقناع والتأثير، فهو لون من ألوان الحجاج بالشاهد والمثال، فإذا كان المشبه به ينبغي أن يكون معروفًا، وأن الجهالة فيه تضيع معنى التشبيه بل تجعله معيبًا، كما ذكر علماؤنا، فإن إلحاق مجهول الحال بالمعلوم نوع من أنواع الحجاج، وتقنية فنية تسهم

---

(١) فايزة عالم، حجاجية الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، ٥٢، مجلة المورروث، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم – كلية الأدب العربي والفنون، مخبر الدراسات الأدبية واللغوية في الجزائر من العهد التركي إلى القرن العشرين، مجلد ٧، العدد ٢، ٢٠١٩م.

في التأثير على المتلقي وإقناعه بمضمون الرسالة الموجهة إليه. وفي الحديث الشريف ذُكر التشبيه في موضعين، أولهما: (الصوم جُنَّة). والجنة الدرع يستر العبد من الطعان في المعركة، والجُنة ستر يستتر به العبد أيضًا مما يؤذيه. فلما كانت الجُنة معلومة الحال ألحق بها الصيام، فهو حماية وستر من كل ما يؤدي إلى معصية الله، ومما يزيد في القوة الإنجازية لهذا التشبيه حذف الوجه والأداة، فالوجه يحذف حين يراد ترك الأمر للعقل لكي يتخيل كل الصفات التي تجمع بين الطرفين، ولو ذكر الوجه لحصر الذهن في المذكور، وحذفت الأداة لتزيل كل الفواصل التي بين الطرفين، فالخبر عين المبتدأ في المعنى، ولذلك كان هذا التشبيه بليغًا لاقترابه من دعوى الاتحاد بين الطرفين، وقد عده بعض علمائنا العرب من الاستعارة (١)، وتقوم البلاغة الغربية –في أغلبها– على عده من الاستعارة كذلك (٢). وبذلك يتأكد الفعل الكلامي للتشبيه في كون الصيام لا يختلف عن الجنة، وهذا دافع قوي لأن يحرص المسلم على كثرة الصيام حتى يستجنَّ من المعاصي، ويظل في حصن حصين من طاعة مولاه.

والتشبيه الثاني تمثيلي حيث شبه الصدقة وأثرها في الخطيئة، وأثرها على العبد بالماء مع النار، وما يحدثه فيها من أثر. إنه تشبيه حالة بحالة، والوجه مركب من أجزاء متعددة لا يصح فصل أحدها عن الآخر، فالأثر الناتج عن وقوع الماء على النار، وما يتبع ذلك من انطفاء النار، وضياع مفعولها من الإحراق ونحوه هو الوجه في الحديث، والقوة الإنجازية في هذا الحديث دعوة وحث على الإكثار من الصدقة؛ فهي نجاة للعبد يوم القيامة، والوجه محذوف والأداة مذكورة، فهذا تشبيه

---

(١) مثل ابن جني الذي يدخله في المجاز [الخصائص، ٢/ ٤٤٢] وابن رشيق الذي يجعل التشبيه والاستعارة من محاسن الكلام، ويدخلهما تحت المجاز [العمدة، ١/ ٢٦٦ –٢٦٨] وابن الأثير الذي يقسم المجاز إلى: توسع في الكلام وتشبيه [المثل السائر، ٢/ ٧٠]، والعلوي الذي جعل المضمر الأداة منه مجازا [الطراز، ٢/ ٤].

(٢) عيد بلبع، الرؤية التداولية للاستعارة، مجلة علامات، ١١٣. وقد عزا ذلك إلى: J.L.Morgan: Observation on the Pragmatics of Metaphor, in Metaphor and thought. Edited by: Andrew Ortony, Cambridge University Press, 1981, P 138. وقد علق قائلا: لا تفرق النظرة الغربية بي: الاستعارة، وما يطلق عليه في البلاغة العربي: التشبيه البليغ.

مرسل مجمل يقيم فارقًا دقيقًا بين إطفاء الصدقة للخطيئة وإطفاء الماء للنار، لكنه يترك للعقل أن يتخيل أوجه الشبه الممكنة بين الأمرين بسبب حذف الوجه. وهنا نلحظ تضافر الصور البيانية ففي داخل التشبيه استعارة.

(٤/ ٥/ ٢) الاستعارة:

يقول عبد القاهر: (أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان) (١). ويقول الخطيب: (وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة) (٢).

ووردت الاستعارة في الحديث في مواطن عديدة منها: تقيم الصلاة، وفرق ما بين أداء الصلاة وإقامة الصلاة هو هذه الاستعارة التي تزيد من قوة الأمر الإنجازية، ولو جاء بلفظ الخبر. ومثلها: الصدقة تطفئ الخطيئة. ومن الاستعارة المكنية (رأس الأمر الإسلام). فقد جعل للشيء الشيء ليس له، على حد قول الشاعر:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (٣).

جعل للشمال يدًا، وليست مما له هذه اليد، وكذلك شبه الصلاة بالخيمة، وحذفها، وترك العمود دليلا على ما حذف استعارة مكنية. في قوله: وعموده الصلاة، وكذلك جعل الجهاد كالجمل، وحذف المشبه به، وترك السنام دليلًا على سبيل الاستعارة المكنية. في قوله: وذروة سنامه الجهاد. والرابعة: وملاك ذلك. فهذه أربع استعارات مكنية. وقبلها استعارتان تبعيتان، فلو طبقنا وجهة نظر السكاكي في اعتبار كل استعارة تبعية مكنيةً -حيث إنه ينكر الاستعارة التبعية، ويجعلها في المسند إليه فتكون مكنية- فهذه ست استعارات مكنية. وعلى الرغم من انبناء الاستعارة عموما على التشبيه إلا أن الدكتور شوقي ضيف يجعل المكنية لا تقوم عليه، ولكن تقوم

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ٢٤، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١م.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ٢٤١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

(٣) لبيد بن ربيعة، ديوانه بشرح الطوسي، ٢٢٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

على بث الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة [١]. وقد كان ذلك في الاستعارات المكنية التي وردت في هذا الحديث. وقد كانت الاستعارة الأصلية حاضرة في الحديث أيضا، في قوله: (إلا حصائد ألسنتهم)؛ حيث شبه الكلام الناتج عن اللسان بالمحصود. وإن شئت جعلت الألسنة كالمناجل التي تحصد الزرع لا تفرق بين أخضر ويابس فتكون مكنية سابعة.

إن الاستعارة تمد المعنى بطاقة إقناعية كبرى لا تقل في قوتها وتأثيرها عن الحجج التي يتضمنها القياس والاستقراء؛ إنها تحاور فكر المتلقي؛ لأنه حين يسمع الكلام يريد أن يحمله على ظاهره فيجد تناقضًا لا يقبله عقله، فيبدأ في محاولة فك اللغز والشفرة، فيتأجل حصوله على المعنى المقصود برهة حتى يتوصل إلى المعنى المجازي، وفي هذا الانتقال من الحقيقة إلى المجاز، استدلال لغوي يعدل الاستدلال المنطقي في متعة العقل، وتأثير الصورة، وطرافة المعنى.

ولعلنا لاحظنا أن تضافر الصور البلاغية بهذه الطريقة يجعل لها قوة إنجازية كبيرة في ضرورة فعل هذه الأشياء التي هي بمثابة الأصول في الدين.

(٤/ ٥/ ٣) **الكناية:** تقوم الكناية بوظيفة حجاجية، وهي أبلغ من التصريح، وتسهم إسهامًا كبيرًا في إعمال عقل المتلقي؛ لكي يكشف المعنى المكنى عنه. وفي الحديث كناية في قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) عن صفة السهر وعدم النوم، والكناية قرينتها متسامحة، تجيز أن يراد المعنى الأصلي كما يراد المعنى المجازي، وفي هذه الكناية قوة إنجازية من جهتين: أنها كدعوى الشيء ببينة، وأنها اقتباس من القرآن، والاقتباس يسمى في الحجاج بالاستشهاد؛ فالنبي الكريم كلامه مقدس، وهو يقتبس من القرآن ما يؤيد كلامه أيضًا فهذا تأكيد على تأكيد على أهمية قيام الليل في الوقت الذي يهجع فيه الخلق، فقد تم توظيف هذا النص القرآني في الحجاج لقيمة قيام الليل، وترك الهجوع والنوم، والقرآن حجة أقوى عند المؤمنين به، فهو كلام رب العالمين، وليس هناك نص أعلى في القوة الإنجازية من القرآن الكريم.

(٤/ ٥/ ٤) **المجاز العقلي:** اشتمل الحديث على مجاز عقلي في: (هل يكب الناس في النار ... إلا حصائد ألسنتهم) وحصائد الألسنة لا تكب، لكنها تكون سببًا للكب.

---

(١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ١٢٢، دار المعارف للنشر، القاهرة، ط ١، د.ت.

وقد قوي السبب حتى أمكن إسناد الفعل إليه، فحصاد الألسنة هو فاعل يكب، وقوته جعلت الفعل مسندًا له على سبيل المجاز العقلي، الذي لا يكون المجاز حاصلًا في المسند إليه ولا في المسند، ولكن في الإسناد، حيث الفعل "يكب" مستعمل استعمالًا حقيقيًّا، وكذلك حصائد الألسنة، وإنما المجاز في إسناد الفعل يكب إلى الفاعل حصائد الألسنة. لتكون قوته الإنجازية أقوى حيث يترتب على ذلك فعل كلامي، يتطلب سلوكًا معينًا؛ هو كف الألسنة عن أذى الآخرين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وهكذا نجد في الحديث تركيزًا كبيرًا للصور البلاغية التي سيقت في إطار التأثير والإقناع.

(٤/ ٦) **تقنية لغة الجسد:** أو ما يسمى بمصاحبات الكلام، حيث تقوم الإشارة مقام العبارة، وتقوم بدور في الإفهام، واللغة العربية لغة الرمز، إن كفت فيها الإشارة لم يحتج إلى العبارة، وإن كفى فيها القليل من الكلام لم يحتج إلى الكثير. فالأداء الحركي حين يصحب الكلام يؤدي إلى أغراض حجاجية، وفي الحديث: (فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا) إن أخذ النبي الكريم بلسانه هذا من لغة الجسد، ويكون أثرها على المتلقي أكبر وأثقل من أن يقول دون هذا الأداء الحركي. ولذلك تعد لغة الجسد ومصاحبات الكلام من الحركات والتعبير الجسدي من التقنيات الحجاجية التي يؤدي بها المتكلم دورًا تربويًّا حجاجيًّا إفهاميًّا. ولذلك فهم معاذ ما يقصده النبي الكريم، فكان إنكاره للمحاسبة على ما يتكلم به العبد.

(٤/ ٧) **تقنية الطباق والمقابلة:** الفرق بين الطباق والمقابلة في عدد الكلمات المتضادة؛ فالطباق يكون بين كلمة وكلمة، وأما المقابلة فتكون بين كلمتين فأكثر. وهما من التقنيات التي يعتمد عليها المحاجج للتأثير على المتلقي، وقد ورد الأمران كلاهما في الحديث، فمثال الطباق: عظيم – يسير، والطباق يتم به وضوح المعنى؛ لأن الضد يظهر حسن الضد، وبضدها تتميز الأشياء. والتعبير النبوي: عظيم – يسير يظهر مدى أهمية هذا الشيء الذي يدخل العبد الجنة، ويبعده عن النار، ثم إنه مع أهميته يسير في العمل والأداء. ومثل ذلك في قوله: الماء والنار، وأيضًا في قوله: خوفًا وطمعًا. ومن المقابلة قوله: يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؛ حيث قابل معنيين بما يضادهما، وهذا يعكس قوة إنجازية وراء هذه المقابلة حيث حرص

معاذ على دخول الجنة والبعد عن النار، وهذه قضية مصيرية، ولذلك كان سؤاله ليتمسك بما يعرفه من الرسول الكريم.

(٤/ ٨) **تقنية خبرية الجملة:** التعبير بالجملة الخبرية له معنى يخالف التعبير بالجملة الاسمية، فالخبرية التي فعلها مضارع تفيد التجدد، والتي فعلها ماض تفيد تأكيد الفعل. أما التعبير بالجملة الاسمية فيفيد الثبوت والدوام. وقد استولت الجملة الخبرية على الحديث بشكل لافت، فلا يوجد في الحديث سوى أمرين، وأربعة استفهامات، وأربعة نداءات، في الوقت الذي وردت فيه الجملة الخبرية ثلاثًا وثلاثين مرة. وهذا ورود طاغ للجملة الخبرية على حساب الجملة الإنشائية أو الطلبية. والسبب أن الخطاب التوجيهي كلما بَعُد عن الطلب والأمر والإجبار كان أقرب إلى القلوب، وأعلق بالنفوس، وكانت الاستجابة له أحرى، والتأثر به أجدر؛ ذلك أن النفس البشرية جبلت على حب التقدير، والرغبة في احترامها، فإذا كان المتكلم يتقن هذا الفن، ويتمثل التأدب في طلبه كانت النفوس بما يلقيه إليها أشغف، وقبول خطابه أفضل من غيره، ومن سيكون في ذلك مثل رسول الله -ﷺ- الذي خبر بواطن النفس، وعرف فطرتها، وألقى إليها ما يناسبها.

وفي استعمال الفعل في الجملة تنوعٌ عجيب، وقد تقارب عدد الأفعال الماضية موازنة مع الأفعال المضارعة، فورد الفعل الماضي سبع عشرة مرة، والفعل المضارع أربع عشرة مرة، وهذا التقارب يوحي بأن الحديث فيه أفعال إنجازية تمت، وأخرى مستمرة لا تنتهي إلا مع موت العبد ولقائه بربه كالعبادات ونحوها. ولقد كان أغلب الأفعال الماضية حافة بالحديث ليست من صلبه كما في قول معاذ: قلت، قال، ثم قال، ثم تلا، قلت، قال، ثم قال ... إلخ. وبذلك يكون الفعل المضارع هو الفعل الإنجازي الأكثر اتصالا بمضمون الحديث، وذكرت أن ذلك لما يكون مطلوبًا في العبادة من المواظبة عليها والاستمرار، فأحب الأعمال إلى الله أدومها.

(٤/ ٩) **تقنية حروف العطف:** تتميز حروف العطف بما لها من معان تجعل كل حرف مختلفًا في دلالته عن الآخر، فالفاء للترتيب والتعقيب، وثم للترتيب والتراخي، والواو لمطلق الجمع، وأو للتخيير أو الشك. وقد وردت أكثر الحروف في الحديث الشريف، وأفادت المعاني التي ربطت بين الأحداث وفق الدلالات التي أشرت إليها، فمن دلالة (ثم) قول معاذ: ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير ... ثم قال ألا أخبرك

وهنا تبدو المهلة التي فصل بها الرسول الكريم بين مجموعة التوجيهات الأولى التي هي أركان الإسلام، والمجموعة الثانية التي هي أبواب الخير وغير ذلك. وهذا يجعل الحديث حاصلا في مجلس واحد، ولكنه ليس على التتابع الذي يجعل السامعين ينسون ما قيل لهم، إنه يوجه إلى صحبه الكرام -والأمة من ورائهم- مجموعة من التوجيهات ثم ينتظر، حتى إذا أيقن أنهم قد فهموها ووعوها بدأ في مجموعة أخرى.

ومن دلالة الواو ذكر التكرار الذي في ذكر أركان الإسلام حيث تجمع الواو بين هذه الفرائض لكنها لا ترتب بينها؛ لأنها جميعًا مطلوبة بالتوازي، وليس بالتتابع. وتأتي (أو) لتفيد شكًّا في القول، فربما قال: وجوههم، أو قال: مناخرهم. وبذلك نرى الربط بين العبارات والكلمات من خلال حروف العطف يحقق السبك والحبك بين العبارات؛ ليبدو الحديث متماسك البنية، منطوقًا بصورة تمثل الإعجاز البشري في كلامه -صلوات الله وسلامه عليه-.

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام. لقد طوفت الدراسة في ميادين متعددة ودرست الخطاب التوجيهي في الحديث النبوي، دراسة تداولية فقدمت تمهيدًا ناقش مفهوم الخطاب عمومًا، والخطاب التوجيهي على وجه الخصوص في مهاد أول، ثم تناولت مقصدية الحديث النبوي الشريف، في مهاد ثان، وقدمت تأصيلًا لمصطلحات البحث وتحديدًا لضبطه المنهجي، في المهاد الثالث. وشرعت في دراسة: السياق التوجيهي في حديث حصائد الألسنة في المبحث الأول، وأفعال الكلام التوجيهية في حديث حصائد الألسنة في المبحث الثاني، والحوار وأثره في الخطاب التوجيهي في حديث حصائد الألسنة في المبحث الثالث، وتقنيات الحجاج في حديث حصائد الألسنة، في المبحث الرابع. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج نوجز بعضها هنا، ونترك الباقي لموضعه من الدراسة. فمن النتائج:

١- استجابة الحديث النبوي لتطبيق المناهج الحديثة في دراسته حيث هو خطاب توجيهي له غاية حجاجية تُمكِّن المعاني في نفس المؤمنين.

٢- من أبرز المناهج التي تسهم في معرفة قصد المتكلم حين يقيم تواصلا مع غيره المنهج التداولي الذي يركز على القصد والسياق في مقاربته للخطابات المختلفة.

٣- الدراسات التي تناولت الحديث النبوي بطريقة تراثية لها قيمتها ولكن تحتاج إلى تحديث وسائل دراستها بتقنيات حديثة ليكون لها تجدد ملحوظ بتوظيفها تواصليا.

٤- ناقشت الدراسة تعريفات مصطلح "الخطاب" والفروق بينه وبين النص ومالت إلى التفريق بينهما بمراعاة الخطاب لظروف الاستعمال التي قد يخلو منها النص.

٥- الربط بين الخطاب والتوجيه شيء مهم في دراسة الحديث النبوي؛ لأن الحديث الشريف هو رسالة مقصودة من مرسل مقصود لعموم الأمة بغرض تحقيق سعادتها في الدنيا والآخرة.

٦- بدا واضحا تركيز التداولية على مبدأ القصدية لدى المتكلم، وقد بدا القصد في الحديث الشريف دلالة للأمة على ما يحقق لها السعادة في الدنيا والجنة في الآخرة.

٧- ذكرت الدراسة مجموعة من المحددات التي تسهم في بيان قصد المتكلم منها العرف اللغوي ومنها السياق والزمان والمكان وغير ذلك.

٨- من خصائص الحديث النبوي أنه مقدس له وظيفة إبلاغية يقصد بها تحويل المضامين التشريعية التربوية إلى منجز سلوكي وفعل حضاري.

٩- المتلقي في الحديث النبوي متنوع بين جمهور حاضر، وغائب قريب، وكوني ممتد إلى يوم القيامة.

١٠- تنبه الدراسة إلى ضرورة الحذر عند تطبيق السياق الثقافي على الحديث النبوي إذ قد يحمل السياق الثقافي حمولات معرفية ترتبط ببيئة وتقاليد تخالف بيئتنا وتقاليدنا ودِيننا.

١١- أكثر الأنواع ورودًا في الحديث الشريف من أفعال الكلام الطلبيات، وقد عللت الدراسة له بأن الرسول الكريم مبلغ عن ربه، ومشرع لأمته.

١٢- أكثر التوجيهيات ورودًا في الحديث هو الأمر، وقد كان الأمر ضمنيًّا في أحد عشر موضعا، وصريحًا في موضعين، وعللت الدراسة ذلك بتأدب الآمر وهو الرسول الكريم الذي يتجنب الأمر الصريح الذي يشم منه الإجبار أو الاستعلاء.

١٣- في الحديث إطناب له صور مختلفة ولكن نسبية الإيجاز والإطناب جعلت الدراسة تؤمن بأن الإطناب في الحديث هو إيجاز لو كان المتكلم شخصًا آخر غير الرسول الكريم.

١٤- تميز الحديث الذي تتناوله الدراسة بتقنية الحوار التي تقيم جسرًا من التواصل بين المتكلم والمتلقي، وتسهم في التعاون بينهما على تبليغ الرسالة.

١٥- تجلى في الحديث أدب معاذ الذي راعى الإشاريات الاجتماعية من النداء الرسمي للرسول الكريم بالرسالة والنبوة.

١٦- دمجت الدراسة بين تيارين من تيارات البلاغة الجديدة هما التداولية والحجاج.

١٧- وردت في الحديث تقنيات حجاجية استخدمها الرسول الكريم للتأثير في قلوب السامعين منها تقنية السؤال والجواب، وتقنية النداء، وتقنية التكرار والإطناب وغيرها من التقنيات.

١٨- الصورة البلاغية عامة -والاستعارة خاصة- ليست لها قيمة جمالية فحسب، وإنما هي ذات قيمة حجاجية في المقام الأول.

١٩- رصدت الدراسة أن صيغ الطلب والاستفهام الواردة في الحديث استخدمت على أنها أفعال حجاجية بالقصد المضمر وفق السياق الذي وردت فيه، كما أن الطلب والاستفهام كانا يؤديان إلى منجز فعلي من خلال منجز قولي.

٢٠- رصدت الدراسة أن الاستفهام في الحديث قد ولد حوارًا سيطر على سياق الحديث، ومعلوم أن الحوار من التقنيات المهمة في نظرية الحجاج والتداولية.

٢١- رصدت الدراسة كثرة الصور البلاغية في الحديث وقد أسهمت بشكل فعال في الحجاج التأثيري للمتكلم على المتلقين.

٢٢- رصدت الدراسة أن الصورة تقوم مقام الاستدلال المنطقي، فإلحاق مجهول الحال بالمعلوم في التشبيه –مثلا- نوع من أنواع الحجاج، وتقنية فنية تسهم في التأثير على المتلقي وإقناعه بمضمون الرسالة الموجهة إليه.

٢٣- رصدت الدراسة أن الاستعارة تمد المعنى بطاقة إقناعية كبرى؛ لأنها تحاور فكر المتلقي؛ فحين يريد حمل الكلام على ظاهره يجد تناقضًا، فيسعى لفك اللغز والشفرة، حتى يتوصل إلى المعنى المجازي، وفي هذا الانتقال من الحقيقة إلى المجاز، استدلال لغوي يعدل الاستدلال المنطقي في متعة العقل، وتأثير الصورة، وطرافة المعنى.

٢٤- كان للمصاحبات اللغوية دور حجاجي من خلال لغة الجسد في الحديث الشريف.

٢٥- رصدت الدراسة طغيان الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية في الحديث الشريف، وعللت الدراسة ذلك بأن الخطاب التوجيهي كلما ابتعد عن الطلب المباشر كان أجدر بالقبول والامتثال.

٢٦- هناك تقارب في ورود الفعل المضارع والفعل الماضي غير أن الفعل الماضي استعمل في الدلالة الحافة أو الأفعال التي ليست داخلة في الخطاب التوجيهي بصفة أساسية.

إضافة إلى نتائج أخرى مبثوثة في الدراسة.

التوصيات:

يوصي هذا البحث بدراسة الخطاب التوجيهي في الحديث النبوي، وذلك في خطبه –ﷺ-، وذلك لما لها من أهمية كبرى من خلال الإفادة منها في توجيه خطاباتنا المعاصرة.

والحمد لله أولا وآخرا، وقد بذلت جهدي ولم أبخل، فإن وفقت فهذا ما أردت، وإن كانت الأخرى فقد حاولت. ولا كمال إلا لله وحده.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين

المصادر والمراجع

١. إبراهيم أصبان، السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، ندوة أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، نشر الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، ٢٠٠٧م.

٢. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، ط١، ١٩٨٦م.

٣. ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤. ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٢م.

٥. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف.

٦. أبو البقاء الكفوي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.

٧. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية: دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ٢٤، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م.

٨. أحمد المتوكل، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ٢٠٠١م.

٩. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

١٠. آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

١١. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

١٢. بخولة بن الدين، الحجاج في التداولية اللسانية، ١٧١، المجلد الثاني العدد الثاني، مجلة فصل الخطاب، الجزائر، ٢٠١٣م.

١٣. تزفتان تودروف، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المركز الثقافي، ١٩٩٣م.

١٤. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٤٨م.

١٥. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١٦. جول سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون والمركز الثقافي المغربي، ط١، ٢٠٠٦م.

١٧. الرشيد أبو عاقلة دفع الله، من أساليب وآداب الحوار في سورة الشعراء وتطبيقاتها التعليمية والتربوية، مجلة دراسات دعوية، العدد ٢٦، ٢٠١٣م.

١٨. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠م.

١٩. سعيد بن نزال العنزي، أساليب الإقناع في الحوار النبوي وأثرها الإيجابي في عملية التواصل، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، مجلد ٢٣، العدد ١، ٢٠١٥م.

٢٠. السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢١. شريفة بلحوت، طبيعة النص وعلاقته بسياق المقام من منظور مايكل هاليداي ورقية حسن، مجلة الأثر، عدد خاص أشغال الملتقى الوطني الأول حول: اللسانيات والرواية، فبراير ٢٠١٢.

٢٢. شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في حمادي صمود (إشراف)، التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، الإدارة العامة للبحث العلمي بوزارة التعليم العالي، تونس، د.ت.

٢٣. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف للنشر، القاهرة، ط ١، د.ت.

٢٤. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨م.

٢٥. عادل محمد الناجم، المقصدية في النص الروائي للكوني: دراسة تداولية، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية، مجلد ١٥، العدد الثاني، ٢٠١٦م.

٢٦. عبد الفتاح أبو غدة، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ومكتبة النهضة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٧. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١م.

٢٨. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٢م.

٢٩. عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

٣٠. علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٣١. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

٣٢. عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة توجيه النص، بلنسية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٣. فان ديك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٣٤. فايزة عالم، حجاجية الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم – كلية الأدب العربي والفنون، مخبر الدراسات الأدبية واللغوية في الجزائر من العهد التركي إلى القرن العشرين، مجلد ٧، العدد ٢، ٢٠١٩م.

٣٥. كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي– محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٣٦. لبيد بن ربيعة، ديوانه بشرح الطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٧. ليلة يوسف حميد يوسف، آليات الحجاج اللغوي في خطاب التطفيل، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد٤١، ٢٠١٣م.

٣٨. محمد بكاي، التصورات التداولية لمبحث القصدية، مجلة العربية والترجمة، تصدرها المنظمة العربية للترجمة، مجلد ٦/ العدد ٢١، ٢٠١٥م.

٣٩. محمود خليل أبو دف، دراسات في الفكر التربوي، أطروحة دكتوراه بالجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م.

٤٠. محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٢م.

٤١. ناغش عايدة، الاستفهام في الحديث النبوي من منظور مباحث التداولية، رسالة ماجستير منشورة على الشبكة الدولية (الإنترنت)، جامعة مولود معمري –تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١٢م.

٤٢. نوال بو معزة، سمات التداولية في الحديث النبوي الشريف: حديث فضل العلم والعلماء نموذجا، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد ٣٥، يوليو ٢٠١٥.

٤٣. يحيى بن حمزة العلويّ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٢م.